UNIVERSAL LIBRARY

رسائل الأحزان

في فلسفة الجمال والحب

بقلم

مصطفى صادق الرافعي



مطبعة الهلال

بمصر سنة ١٩٢٤

١٦٩ ٢٩

مؤلفات صاحب الكتاب

تاريخ آداب العرب (الجزء الاول) في اللغة وتاريخ روايتها
» » » (الجزء الثاني) في اعجاز القرآن
» » » (الجزء الثالث) في تاريخ الخطابة
والامثال والشعر
(تحت الطبع)
كتاب المساكين
حديث القمر
ديوان الرافعي (ثلاثة أجزاء)
ديوان النظرات
النشيد المصري الوطني وتاريخه (الطبعة الثانية)
نشيد سعد باشا زغلول وتاريخه

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

كان لي صديق خلطتُه بنفسي زمناً طويلاً وكنت أعرفه معرفة الرأي كأنه شيء في عقلي ، ومعرفة القلب كأنه شيء في دمي . ثم وقع فيما شاء الله من أمور دنياه حتى نسيني ، وطار على وجهه حتى غاب عن بصري ، والتفّت عليه مذاهبُه فما يقع اليّ من ناحيته خبر ؛ وامتدّ بيني وبينه حولٌ كامل خلا من شخصه وامتلأ من الفكر فيه ، كأنه العامُ الأولُ من تاريخ حفرة بين القبور العزيزة التي لا تُنسَى

وطلعت الشمسُ يوماً في غيم يناير من سنة ١٩٢٤ فأحسستُ قلبي من الذعْر كالطائر ينفُضُ ندى جناحيه في

أشعتها ، ولم تكد ترتفع وتتلالا حتى وافى البريد يحمل اليّ خطه واذا فيه :

يا عزيزي الحبيب !

فقدتَني زمناً إن يكن في قلبك منه وخزةٌ ففي قلبي منه كحزِّ السيف ؛ لم أنسك نسيانَ الجحود وان كنتُ لم أذكرك ذكرى الوفاء فأبعثَ اليك بخبر يترجم عني ، إذ كنتُ في سجن وأنا الساعةَ منطلق منه . لا تجزع ولا تحسبنَّه سجن الحكومة ... إن هو الا سجن عينين ذابلتين كان قلبي المسكينُ يتمزَّعُ في أشعة ألحاظهما كما يكون المقضيُّ عليه اذا أحاطت به السيوفُ وجعل بَريقُها يتخاطف معاني الحياة من روحه قبل أن يخطف هذه الروح . بل سجنُ فكري الذي ابتُليتُ به وبخياله معاً فلا يزال واحد منهما يبالغ في ادراك الجمال والآخر يبالغ في تقديره حتى تكاد تطلعُ نفسي من نواحيها (١) لكثرة

---

(١) اذا امتلأ الشيء الى آخره قيل كاد يطلع من نواحيه

ما يُسرِ فان عليها كما يريد الاطفالُ ان يملاوا القــدحَ ليستفيضَ لا ليمتلىء ، وليرسلَ الماء لا ليُمسكه ؛ فلو أنهم صبُّوا فيه ملء بحر بأمواجه لجرى البحر من حافة قدح صغير

ما أحسبني قطُّ رأيتُ امرأة جميلة كما هي في نفسها وتركتها كما هي في نفسها بل هناك نفسي . وآهٍ من نفسي. وما أسرع ما يمتزج في هذه النفس بعضُ الانسانية المحبة ببعض الانسانية المحبوبة فاذا أنا بشيء إلٰهي قد خرج لي من الانسانيتين . هو هذا الشعر ؛ هو هــذا البلاء ؛ هو هذا الحب

فررت منك ومن سواك يا عزيزي مُصَيْف (١) الى امرأة كالتي جعلت آدم يفرُّ حتى من الجنة ومن الملائكة ؛ وقد يكون اتصال رجل واحد بامرأة واحدة كافياً احياناً لتكوين عالَم كامل يسبحُ في فَلَكٍ وحده . عالَمٍ مسحور،

---

(١) مصيف تصغير « مصطفى » على قاعدة الترخيم وكان الصديق يتحبب اليّ به

في فلك مسحور ، لا يخضع الا لجاذبية السحر ، ولا يعرف الا تهاويل السحر

على انك لم تفقد مني في هذه السنة الا بضعة كُتُب وكلاماً كنا نترسَّل به وليس فيه الا الحبر ؛ فسأردُّ عليك من ذلك كُتبَ سنَوات وأعوضك برسائلي كلاماً فيه دمعُ العين ودمُ القلب . فقدتَني صديقاً يهزُّ يديك بتحيته والآن أعود اليك شاعراً يهز قلبك بأنينه . فقدتَني شخصاً وسأرجع اليك كتاباً

أما أنت فاكتب لي رَجْعَ كل رسالة تأتيك من قِبَلي واذكر لي موقعها من نفسك وكيف كان دَبيبُها أو طيرانُها عندك فاني راميك بأسهُم لا قاصراتٍ عن قلبك تنزل دونه ولا زائداتٍ تمر عليه وتتجاوزُهُ بل مُسَدَّدات يقعن فيه

وأرجو عافاك الله ان لا تتَطَلَّعَ في قلمي بنقد أو اعتراض او تعقيب بل دعني وما أكتبه كما اكتبه فان لكل شيءٍ طرَفين وان طرفي الجمال هما الحب والبغض ؛

ورسائلي هذه ستأتيك بالجمال من طرفيه فلقد والله احببتُ حتى أبغضت ، ولقد والله يُضْجِرِ العمل السامي اذا أصاب غيرَ موضعه كما يُضجِر العملُ السافل اذا نزل في موضعه

ومتى انقطع هـذا المَدَدُ المتلاحق من كتبي فاجمع الرسائل وقدم لهـا كلمة بقلمك ثم اطبعها وسمها « **رسائل الاحزان** » ؛ انها كانت عواطفَ ثارت وقتاً ما ليحدُثَ منها تاريخ وسكنت بعد ذلك ليحدثَ منها شعر وكتابة

فان نجتمع بعدُ نظرنا فيها معاً وقرأتْها عيناكَ لقلبي، وان ارتاح الله لي برحمته [1] رفَّت عليها روحي فأسمع صوتك في الغيب يرسل الى هذه الروح تحيةً من أنغام قلبها الميت

صديقك

٢١ يناير سنة ١٩٢٤ (....)

« * »

وجعلت رسائل الصديق تترادفُ اليَّ مُسْهَبَةً صافيةً تقطر فيها نفسهُ كما ترسل السحابة المنتشرة قطراتٍ انعقدت

---

(١) كناية عن الموت

وانحلت . ثم جعلت نفسه تنطوي على نأي حبيبته واشتدَّ عليـه أمرها ثم أسْهلَ وانقاد ، واعتادها هاجرة فَراثَ قليلا [١] ثم كفَّ ؛ ومرت الظبية تَطْفُو [٢] ووهبها للبر الواسع .... وانقلب عنها بعد أن ملأْت نفسه كما يقول في بعض رسائله « بمثل البحر مِلْحاً ومرارة » ....

أما هذا الصديق فأعرفه أُسلوباً من الكِبْر ولكن على نفسه ، ومن الشذوذ ولكن في نفسه ، كأنما فُتحت أفواهُ عروقه جنيناً وملأتها الوراثة من دم مَلِكٍ كان في اجداده . مستصعِبٌ شـديدُ المِراس فهو أبداً في حياته كالملِك الذي حالت السيوفُ والأسـنة والقوانينُ بينه وبين تاجه فجعلت له حياتين يفصل الموت بينهما ؛ اجتمع من تاريخه انسان بلغ الزمنُ تحت عينيه نَيِّفاً وأربعين سنة، فهو تاريخ أحزان قد استفاضت مسائله في فصول وأبوابٍ جفَّ القلم منها على نيِّف وأربعين جزءاً كلماتُها في حوادثها

---

(١) أي ابطأ واسهل عاد سهلا

(٢) تعدو لخفتها عدواً شديداً

وان السطر منها ليُرْعَدُ في صحيفته من الغيظ وان الكلمة لتبكي بكاءً يُرى وان الحرف ليئن أنيناً يُسمع وان تاريخه كله لينتفض لانه مصيبة مَلَكية مصورة في ملِك

« * »

لقد سبَق الكتابُ وجفَّ القلم الأزلي على علم الله فما أَتينا الى هذه الدنيا الا ليمثل كلٌ واحد منا فصلا من معاني الشقاء الانساني في تلك الثياب التي هي مِلك لصاحب المسرح ، لا نخلعها ونلبسها بل يخلعنا بعضها ليلبسنا بعضها الآخر. فلسنا نبتدع ولكن يُلقى علينا وما نحن بمخترعين ولكننا نحتذي ، والرواية موضوعة تامة قبل ممثليها . وضعها ذلك القلم الأعلى الذي كتب مقاديرَ كل شيء كان او يكون حتى تُمحَى من صفحة الارض هذه الأحرفُ السوداء المتحركة والساكنة . . . .[1]

والمشكلة الانسانية الكبرى ان كل انسان يريد أن يكون بطلَ الرواية ومَثَلَها البِكْر حتى ذلك الشخص

---

(١) كناية عند الناس

الذي جيء به لتنزل عليه اللعنة في سِيَاقها . غير ان الرواية مفصَّلة من قبل، ويأتي فصل اللعنة كما هو بأطرافه وحواشيه وأسبابه ونتائجه فينصبُّ على ممثله جملة واحدة على وجه لا يُحَس ولا يُرى ولا يُدفع كما يلبسه النوم فاذا هو يَفتِل فيه فتلاً واذا رجلٌ على أعين الناس باللعنة حالٌ وباللعنة مرتحل

النوم والقَدَر والموت كالشيء الواحد أو ثلاثتُها أجزاء لشيء واحد ؛ فالنوم غفلة تُخرِج الحي هُنَيْهةً من الحياة وهو فيها على حالة اخرى ، والموت غفلة تخرجه من الحياة كلها الى حالة أخرى، والقدر منزلة بين المنزلتين يقع هَيِّناً على اهل السعادة بأسلوب النوم ويجيء لأهل الشقاء عنيفاً في أسلوب الموت ، ولن يجلبَ شيئاً او يدفعَ عن نفسه شيئاً من هذه الثلاثة الا الذي لم يُخلق على الارض . ذلك الذي يستطيع أن يفتح عينيه على الليل والنهار فلا ينام ، او يحفظ نفسه على الصغر والكِبَر فلا يموت ، أو يضرب بيديه على مَدَار الفلَك فيُمسكه ما شاء او يُرسله

جئنا الى هذه الحياة غيرَ مخيَّرين ونذهب غير مخيرين إن طوعاً وان كرهاً ؛ فمدَّ يدَك بالرضا والمتابعة للاقدار او انزعها ان شئتَ فانك على الطاعة ما أنت على الكره وعلى الرضا ما أنت على الغضب ؛ ولن تعرف في مذاهب القدر اذا أنت أقبلتَ أو أدبرتَ أيّ وجهيك هو الوجه ، فقد تكون مقبلا والمنفعة من ورائك او مدبراً والمنفعة أمامك والقدر مع ذلك يرمي بك في الجهتين أيّهما شاء

وحريٌّ بمن يوقن انه لم يولد بذاته ان لا يشك في انه لم يولد لذاته ؛ وانما هي الغاية المقدورة المتعينة فلا الخلق يتركونك لنفسك ولا الخالق تاركٌ نفسك لك

« * »

كذلك كان صديقي وما هو الا انسان من الناس ، وقد بلغ من العمر أربعة عقود ولكنه يحس منذ الصغر أنه رجل هرم او كما يقول بعض الفلاسفة [1] في تعليل ذكاء الاذكياء انهم يتذكرون ما يرونه ولا يتعلمونه لان فيهم

---

(١) ينسب هذا الرأي لافلاطون

نفوساً خرجت من الدنيا كاملة ثم رجعت لتزداد كمالا وتلك خرافة ؛ ولكن من نقص هذا الانسان انه لا يستطيع التعبير عن اكبر الحقائق وأدقها الا بأسلوب خرافي . . .

قال لي هـذا الصديق يوماً : اني بلغت اربعة عقود ولكنها فيما عانيتُ كأنما تضاعفت الى اربعين عقداً ؛ وقد انتهيتُ من دهري الى السنّ التي ينقلب فيها الآدميُّ من وَفرة القوة ليثاً ويرجع من قوة الحكمة نبيًّا ويعود من تمام العقل انساناً . غير ان هذه الاربعين بما تعاوَرَتْ عليَّ قد هـدم فيَّ بعضُها بعضاً ؛ فان اكن بناءً فذلك صَرْحٌ مُمَرَّد عمل فيه اربعون مِعْولا فما أبقت حجراً على حجر ؛ وان اكن حَوْمَةً فقد اعترك فيها للأقدار اربعون جيشاً فما تُؤَرِّخ بنصر ولا هزيمة . يا وَيْلَتَا من هـذه الدنيا . ان مصيبة كل رجل فيها حين يصير رجلاً أنه كان فيها طفلاً وما علم أنه كان طفلاً

تلك حياة الصديق وكانت ليلا طويلاً انبسط عليه فَنَنٌ من الظلام كانه مُورِقٌ بالسحُب والغمائم السوداء

لا ينقشع بعضها عن بعض حتى كأن صباحه مات فيها أربعين سنة ثم انبعث آخراً من وجه فتاة أحبها فأشرق له من غرتها واستضاء عليه في وجهها وطلعت شمس حبه من خديها حمراء في لون الورد اذ امتزجت أشعتها بظلماته

ويؤخذ من رسائله ان صاحبته كانت من قوة الجاذبية كأنها كوكب جذب منه كوكباً آخر ، ومن فتنة الحسن كأنها رسالة الٰهية الى هذه الارض بل اليه وحده في هذه الارض . أدارته هذه الحياة طويلاً وأدارتها ليجيء موضعه الى جانبها فكأنما ادارت منه فلكاً عاتياً لا يتزحزح الا بعد دفعه اربعين سنة كاملة ....

رجل وامرأة كأنما كانا ذرّتين متجاورتين في طينة الخلق الازلية وخرجتا من يد الله معاً . هي بروعتها ودلالها وسحرها وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ، فكان منهما شيء الى شيء كما تُوضَع زجاجة الحبر الاسود الى جانب يتيمة من الألماس أُجيد نحتُها وصقلُها وتكسر على جوانبها شعاعُ الشمس فاذا هي من كل جهة ثغرٌ يتلألأ

واذا بالزجاجة ولو على المجاز « الماس اسود »

كانا في الحب جزءين من تاريخ واحد نَشر منه ما نَشر وطوى ما طواه ، على انها كانت له فيما أرى كملَك الوحي للانبياء ورأى في وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين فلك المعاني السامية كمرآة المرصد السماوي ؛ فكل ما في رسائله من البيان والاشراق هو نفسها ، وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه

« ❋ »

هدمت الاقدار هذا الصديق حتى انحط كل ما فيه من العزم والقوة فجاءت « هي » تبنيه وتشدُّ منه وتُرمِّم بعض نواحيه المتداعية وتقيمه بسحرها بناءً جديداً وتحفت به عنايتُها زمناً حتى صَلُحَ على ذلك شيئاً فأيسرت روحه من فقرها الى الجمال والحب . ويقول صديقي « انه ليس على الارض من يشعر كيف ولدته أمه ولكني رأيت بنفسي كيف ولدت تلك الحبيبة نفسي ؛ مرتْ بيديها على أركاني المتهدمة واعانتها الاقدار على اقامتي وبنائي وغير أن هذه

الاقدار لم تدعها تبنيني الا لتعود هي نفسُها بعـد ذلك فتهدمني مرة أخرى »

يصف حبيبته في هذه الرسائل كأنه مسحور بها فيجيء بكلام علْوي مشرق كتسبيح الملائكة يمازجه أحياناً شيء يحار فيـه الفهم لان أحدنا انما يرسل فكره وراء قلمه ، أما هو فيرسل نفسه وراء فكره ويستمد قلمه منهما . فمنزلته أن يكتب ثلاث كلمات ومنزلتنا أن نفهم كلمتين ، والانسان منا كاتب مفكر ؛ أما هو فقـد زاد بصاحبته فكان كاتباً مفكراً وملهَماً

ومما لا اكاد افهمه انه يكتب كتابة محب أحياه الحب ومبغض قتله البغض ؛ فاني لأعلم ان كل شيء حبيبٌ ممن نحبه حتى البغض اذا كان يدل على حبـه ولو دلالة خفية . بَيْدَ ان صاحبي يجفو جفاءً شديداً فلعلها أَنَفَة غلبت بهـا النفس على القلب فحولت الحب الى جفاء والجفاءَ الى غيظ والغيظ الى مقْت وانما المقتُ اول البغض وآخره

يا صديقي المسكين لا يَحْزُنْكَ فان آخر الحب آخرٌ لأشياء كثيرة ... وان من بين النساء نساءً أولهُن كالشباب وآخرهن من أشياء كالهرم والضجر والضعف والموت

ويا جمالَ النساء ان كان في الاشياء ما هو أحسن وأجمل فان في الاشياء ما هو أنفع وأجدى ، وقد تكون الجدوى والمنفعةُ من الجمال في بغضه أحياناً اكثر مما تكون في حبه

ويا رحمةَ الله من فوق سبع سماواته لقد علّمتِنا بما نجده فيسرُّنا ، وما ننساه فلا يضرنا ، أن لا نيأس منكِ أبداً ولو كنا من الهمّ تحت سبْع أراضيه

مصطفى صادق الرافعي

الذكرى

ما أشَدَّ على قلبي المتألم أن لا يأخذَ بصري من الناس الا من يتَدَحرَجُ في نفسي ليهويَ منها أو يتَقَلّبُ في أجفاني[١] ليثْقُلَ على عينيَّ ؛ وأُحاول أن أرى تلك الطلعة الفاتنة التي انطوى عليها القلب فانبَثَّ نورها في حواشيه المظلمة ، وأن أملأ عيني من قمر هـذا الشعاع الذي جعل السماء في جانب من صدري ؛ فاذا ما شئتُ من الوجوه الا وجهَ الحُبّ، واذا في مطلع البدر من رُقعَةٍ سوداءَ لا تبلغ مدَّ ذراع ويَغشَى الكونَ كلَّه منها ما يَغشَى . فاللهمَّ أوْسِعْ لقلبي سَعَةً[٢] يَلوذُ بها

العالَمُ لكل الناس . غير أن لكل انسان عالَماً هو خالصةُ نفسه[٣] ؛ وعلى أن هذه الدنيا مترامية الى كل جهة

(١) كناية عن الثقل وفلان يتقلب في اجفان عيني اي ثقيل
(٢) اي اجعل له سعة لا تضيق به السلوة
(٣) ما يستخلصه لنفسه ممن يحبهم كأنهم من نفسه

تَتَدَلَّى عليها السماء ، فان أراضِيَها الخمس بما رَحُبَتْ لا تَقُومُ عندي بتلك الجدران الاربعة التي رأيت فيها من أحببتُها ؛ رأيت من هـذه صورة قلبي فلا عَجَبَ أن تكون تلك الجدران صورة ضلوعي . وما أدري أذلك سِحْرٌ أم تَلْبِيسٌ أم تَخييلٌ ؛(١) أم هو الحب ؟

اذا كنتَ شاعراً فأضْلَلْتَ نفسك فَنَشَدتَها طويلا وقلَّبتَ عليها آفاقَ النفوس وأفلاكَ القلوب فانك لن تصيبها الا في نفس امرأة جميـلة يجعلها مهندس الكون مركزاً للدائرة التي تَنْفَسِحُ بأقطار نفسك ذاهبـةً بكل قُطر الى جهة من أمانيّ الحياة

واذا كنتَ حكيماً فسألتَ نفسك سؤال الفلاسفة : من أنا ؟ ووجدتَ في نفسك ذلك السرَّ الخفيَّ يقول عنك : من هو ؟ فانه لن يظهر لك معنى « أنا وهو » الا اذا وضع الحب بينهما « هي » . . .

واذا كنت رجلاً من عامّة الأرض اندَمَجَ في

(١) ما يخيل للعقل ويجعل الامور ملتبسة

جِلدة من الثرى[1] فان نفسك لن تُحِسَّ جوهرَها الالهي الا في نفس حبيبةٍ وان كانت من عامّة السماء . . . . فالحب يجعل الناس أعلاهم وأسفلَهم صاعدين أبداً من أسفلَ الى أعلى

« * »

إني أخطّ في هذه الصفحات صورة من الزمن الفاني تُصوِّر خَطْفَةَ البرق التي خطرتْ في سماء العمر من ابتسامة ملتهبة كانت سيَّالةً بكهربائها ؛ وان في القلم لشيئاً إلهياً يدفع الموتَ والنسيان عن المعاني التي تُكتب الى أَجَل طويل ، كأن القلم ينتزعها من الانسان الذي هو قطعةٌ من الفَناء ليُبعد الفناء عنها . هي «رسائل الاحزان» لا لأنها من الحزن جاءت ولكن لانها الى الحزن انتهت ، ثم لأنها من لسانٍ كان سِلماً يُتَرْجِمُ عن قلب كان حرْباً ، ثم لان هذا التاريخ الغَزَلي كان ينبُع كالحياة وكان كالحياة ماضياً الى قبر

---

(١) كناية عن الرجل من العامة لا هم له الا هم العيش فلا يعلو عن الارض

ليس بيني وبين الهوى شأنٌ ولا عداوة ولكنها تركت فيَّ ثلاثاً : قلبٌ أخلص لها وأوغرتهُ[١] عليها، وبقايا آلام كأنها أشلاءٌ[٢] من فريسة تُشير الى تاريخ من الموت والألم والتمزيق ، وتركت مع هذين اسمَها الذي أحفظها فيه بجملتها ، وقد يُحْسَمُ الداءُ[٣] ولكن اسمه يبقى داءً ما بقي . فهذه الاسماء اكثرَ ما انتَ واجدُها إما زيادة على أصحابها في الحب او زيادة في البغض او زيادة في الألم ، إذ هي عند أشخاصها تُطلق على أشخاصها ، ولكنها في الناس تنبه الى المعاني والحوادث والصفات المجسَّمة التي تنتشر عليها النفس او تنقبض ويتحرك لها الدم حباً او بغضاً ورغبةً او رهبة وعطفاً او غِلظةً وأحياناً . . . إهمالاً او ازدراء

والحبيب قد يتحول الى كلمة او قُبلة او معنى من المعاني اذا اراد محبه ان ينقله معه الى أي مكان وهو باق في مكانه ؛ الكلمة والقُبلة والمعنى . هذه هي الجهات الثلاث التي تنفذُ منها النفس الى أحبابها حين يُخْفيهم الغَمام الفاصل

(١) أحفظته وملأته حقداً (٢) اجزاء (٣) تنقطع مادته ويبرأ

بين الحياة والحياة اذا ابتعدوا او هَجروا أو الغمام الضارب بين الحياة والموت اذا لحقوا بالأبد . أما الجهة الرابعة فهي تُفتح للمحب يُلقي جسمه ويصعد بروحه ويختفي هو فيها . ولَعَمْري اني لأُريد ان أنساها ثلاث مرات لا مرة واحدة ولكنها في ذكراي كأنها ثلاث نساء واحدةٌ في الرضا وثانية في الغضب وثالثة بين ذلك ؛ واحدة في كلمة وأخرى في قُبلة وثالثة في معنى من المعاني . . . .

((*))

السعادة تنصرف عنا في اكثر الاحيان ليكون تلهفُنا عليها واهتياجُنا لها سعادةً على وجه آخر وكأنما أوشكتْ[1] لنا من هذه الجهة وهي ذاهبة ؛ واذا لم يكن الانسان بأشدَّ حاجةً الى الطعام في وقت منه الى الجوع في وقت غيره فكذلك هو في غذاء روحه وعواطفه، يفقد السعادة وقتاً كالجوع ووقتاً كالصوم . وان هذا لهو بعضُ أسرار الحكمة الالهية في الشقاء الانساني ولكنه كذلك

(١) أي قربت وعرضت

من اسباب سوء الفهم في الانسان . ولقد ذهبت هي كالسعادة فلا أطمع ان يتنفَّس قلبها على قلبي او يتنهد صدرها لصدري ، غير ان الشاعر الروحاني الذي يَسعد بالحب اذا أرضى الحبُّ نفسه يكون اسعد بالهجر اذا أرضى نفسه كذلك ، ومع الحب عالَم كثيف يُنشِىء في كل يوم ألماً ، ومع الهجر عالَم مجرد يُحدث في كل يوم سلوة

فلنترك المادة للمادة يتحطَّم البغض والغيظ فيهما وتخلص الروح الى الروح كنور في المشرق ينبعثُ الى نور في المغرب ؛ واذا ابتعد نجم عن نجم استطاع كلاهما أن يَلْمَحَ للآخر لمحةً متبسمة من بعيد ، يجعلها البعد شعاعاً صافياً وان كانت في ذات نفسها شعلة من جحيم يَتَضَرَّم

ان هذه الذكرى حياة أَبثُّها مني في نسيانها فما أهنأني ان يجيئني من نسيانها شيء تبثه هي في حياتي

(....)

بعد ما كنتَ وكنا[1] ؟

يا رياضَ الغَزَالِ في سَرْحِكِ الفيْـ
ـنانِ يَهْفُو بنا النُّحولُ غُصونَا[2]

ما الذي يجعل المحبَّ سعيداً
غيرُ من غَادَرَ المحبَّ حزينَا

ليتني في ثَراكِ نَبْعٌ ويأتي
يَتَراءَى الغزالُ في النَّبع حينَا

ليتني في رُباكِ ظِلٌّ ظَليلٌ
لِيلُوذَ الغزالُ بي ويلينا

« ✻ »

بعد ما كنتَ يا غزالُ وكنا
ما الذي تحسَبُ الهوى أن يكونا ؟

(١) كل ما يأتي في هذه الرسائل من الشعر فهو منها
(٢) اصل الفينان الحسن الشعر الطويلهُ واستعيرت هنا للشجر

الرسالة الاولى

سأكتب هذه الكلمات المرتعشة ، وسأبسُطُ رِعْدةَ قلبي في ألفاظها ومعانيها ؛ أكتبُ عن (...) ذلك الاسم الذي كان سنةً كاملةً من عُمْرِ هذا القلب ، على حينِ أن السعادة قد تكون لَحَظاتٍ من هذا العمر الذي لا يعدُّ بالسنين ولكن بالعواطف ؛ فلا يسعُني إلا أن أردَّ خواطري الى القلب لتَنْصَبِغَ في الدم قبل ان تنصبغ في الحبر ثم تخرج الى الدنيا من هناك بين ما يَخْفُقُ وما يزْفِرِ وما يئنّ . « من هناك » ! آه . من تُرى في الناس يعرف معنى هذه الكلمة ويتَّسِعُ فكره لهذا الظَّرف المكاني[1] الذي أُشير اليه ؟ إن العقل ليمُدُّ أكنافَه[2] على السموات فيسعها خيالاً كما ترى بعينيك في ماء الغَدِير شبكةَ السماء كلها محبوكةً من خيوط الضوء ، مفصَّلةً بعقد النجوم . ولكن هناك ؛ في القلب ؛ عند مُلْتَقَى سر الحياة

(١) هناك من ظروف المكان (٢) جوانبه

بسر مُحييها ؛ وهناك : في القلب ؛ عند النقطة التي يَتَقَطَّعُ فيها الطَّرْف[1] بينك وبين من تحب ، حين تريد الجميلة ان تقول لك اولَ مرة أحبك ؛ ولا تقولها . هناك ؛ في القلب ؛ وعند موضع الهوى الذي ينْشَعِبُ فيه خيطٌ من نظرك وخيط من نظرها فَيَلْتَبِسان[2] فتكون منهما عُقدة من أصعب وأشد عُقَد الحياه . هناك ؟ هذا معنى «هناك»

« * »

سأكتب اشياء وأُضْمِرُ على أخرى لا أبوح بها ، وما دام لكل امرىء باطن لا يُشْرِكُهُ فيه الا الغَيبُ وحده ففي كل إنسان تعرفه إِنسانٌ لا تعرفه . وليست على المعاني والخواطر سِمَاتٌ[3] تميز بعضها من بعض كبياض الابيض وسواد الأسود ؛ فأنا وحدي أعرف سبب الزازلة التي أصفُها ، والناس بعدُ كأولئك الخياليين القدماء الذين كانوا

---

(١) تقطع النظر أن ينظر في اغضاء وفتور كنظر المستحي

(٢) يختلطان وينعقد احدهما بالآخر

(٣) أي علامات جمع سمة

يقولون متى اهتزّت أثقالُ الارض[1] : إن إله المصارعة يَنْبض قلبهُ الآن .... وأعرف سبب البركان المنفجر وكانت خُرافة الاقدمين عندما تتمزَّع الارض من الغيظ وتلعنهم بألفاظ من النار : أن الله الحِدَادة ينفخ في الكِير .... أنا وحدي أعرف ما أنْدَمِجُ عليه[2] وما يُكِنُّهُ قلبي المتألم الذي أصبح يضطرب اضطراب الورقة اليابسة في شجرتها نافرةً تَتَمَلْمَلُ إن عَفَتْ عنها نَسمة لا تعفو النسَمات كلها . فسآتيك في رسائلي بالكلام الصحيح والكلام المريض ويتشعّب عليك من خبري أمور وأمور فلا تحاول أن تَهْتِكَ سر هذا القلب . واذا صح ان الانسان انطوى فيه العالَم الاكبر فقد صح أن السماء انطوت في قلب الانسان . ما أبْعَدَكَ عن السماء ! انظر انظر فان السماء تقول لك ايضاً انها معنى « هناك »

« * »

لم تُحيِّرني المتناقضاتُ ولا المتشابهات ولا صِفْتُ

---

(١) كناية عن الزلزلة (٢) أنطوي عليه

بأسباب الفكر فيها فان ذلك الحب جعل فيَّ عقلين لا عقلا واحدا ؛ احدهما يُقرّني في هذه الدنيا والآخر ينقلني الى ثانية ؛ دنيا الناس جميعاً ودنيا امرأة واحدة ؛ دنيا السموات والارض ودنيا قلبي

في العقل الأول تنحلّ كل المُشكِلات ، وفي الثاني تتعقّد كل « البسائط » . . . . أحدهما قوي فلو اجتمعت عقول اعدائه في عاصفة واحدة لكان وحده عاصفةً تَلِفُ بها لفّاً . والآخر ضعيف ضعيف تُمرِضه الابتسامة الواحدة مرضاً طويلا . ذلك يَكسِر النفس كسرا ويَرُضّها رَضّ الهَشيم[1] وينزعُها من جَمحاتِها ؛ وهذا ؟ كان الله له لا يُشبِه الا الفضاءَ ما نُسِبَ الى شيء ولا حُسِبَ في شيء . . . . الأول جبّار يلد المِحْنَة ويُميتها ، فهو عقل ما ينقطع له من الحيلة مَدَد ؛ والثاني خَوّار[2] يُمتَحَن بالنظرة الفاترة المتهالكة دلالاً فتَحمِل هذه المحنة وتلد في طريقها اليه فلا

---

(١) الهشيم ما ييبس من دقيق النبات فكسره اهون الاشياء
(٢) ضعيف لا جلد فيه

تصل حتى تكون محنتين . . . . وأنا بين هذين العقلين كأني عالمَ عجيب حقائقه هي خرافاته ، وما مَثَلي الا مَثَل النهر الطامي تدفّق الى البحر وقد فار فائِرُهُ ؛ فلو سألتَ أحفَى مسألة (١) واستعنتَ بالفنون والأدوات جميعاً لتعرف ما هو ذلك الموضع المعيّنُ الذي يصل بين منبعه ومَصَبّه لكان الجهل والعلم في ذلك سواء ؛ إذ الموضع في النهر هو كل موضع فيه على طول ما يجرى ويمتد

كذلك حَيْرةُ الحياة والحب يُجاب عنهما بجواب واحد هو نفسه حَيْرة اخرى ؛ ولكني اكتب الآن وقد تركتُ الحب وتركني . خرجت من المعركة فَنَشِبَتْ نفسي في معركة اخرى لا أدرى أهي قائمة بين الحب والبُغْض أم بين الحب والحب ؟

أرأيتَ قَطُّ ذئباً قد افترس شاةً وجعل يُفَرْفِرُها (٢) بأظافره وأنيابه وهي تنتفض يائسةً هالكة ؟ إن تكن رأيته فذلك ذئب رحيم لو أنت كنتَ عاشقاً فرجعتَ لك من

---

(١) بغاية التدقيق (٢) يمزقها وينفضها

بهواها مما تحب الى ما تكره فرأيتَ البغض وما يصنع بقلبك. انما الذئبُ نابٌ وظفرٌ وسَورَةُ وَحْش (١) يَعْتَرى أكيلَتَه فيسطو بها فيُذهلها عن نفسها ثم لا يزيد بعد ذلك على طبيب جاهل في « عملية جراحية » . . . . أما البغض فذئبُ الدم؛ يُساوِرُكَ سَورَةَ الحُمَّى فاذا هو شعلةٌ طائرة في عروقك لا تدع منك موضعاً الا مسَّته ولا تمس منك موضعاً الا نَقَعَتْ فيه (٢) مثلَ ناب الأفعى من وَهَجِ الحب وسمّه وغيظه وألمه فما تدري في أي ناحية عذابك من هذا البغض ولا من أيّ الآلام هو ؟

ولن تظهر قدرة الجمال وما فيه من القوة الأزلية الا اذا حملك على بغضه بعد ان يحملك على حبه فيقتلك مرتين كلّ مرة بسلاحٍ وكل مرة على أسلوب وكل مرة بنوع من الالم. وذلك ضربٌ من العذاب لا تملكه قوة في الارض لا في الملوك ولا في الجبابرة ولكن تملكه بعض النساء الضعيفات ويُعذِّبْنَ به حتى الملوك والجبابرة

(١) السورة الحدة والبطش (٢) غرزت

مهما يبلغ الالم في عذاب انسان فلن يُجاوز حالة معيَّنة ثم يُغْمَى على المتألم ويستريح ولو دُقَّت في عظامه المسامير ؛ كالماء مهما تُوقِدْ عليه فلن يَعْدُوَ درجة معروفة في غليانه ثم يثبت عندها ولو أضرمتَ عليه من النار التي وَقُودُها الناس والحجارة . غير أن ألم الحب الشديد حين يُكرهك على بغضه نوع منفرد في كل آلام بني آدم كانفراد « ذئب الدم » في جميع ما خلق الله من المعاني الوحشية

((*))

لم أر وصفاً كهذا أفظعَ ولا أبعثَ على الرُّعب لانه إنما هو موصوفُه .... فسأخفف عليك فيما يلي هذه الرسالة ولا اذكر لك ثَمّتَ الا ما يكون كوصف الجنة تَزَخْرَفَت له ما بين خوَافقِ السموات والارض (١) ، ولكن دعني اقل لك اني ابغض من أحبها ، على أنك لو رأيتها لرأيت نفسها تَلُوحُ في وجهها ، جميلةً كجماله رقيقة كرقته محبوبة كحبه ،

---

(١) هـذه الكلمة من حديث في صفة الجنة والمراد ملء السموات والارض

ولكني مع ذلك ابغضها والله بغض المَحْرور لما يَتَلَذَّع [١] من أشعة الشمس ، وبغض العين الرَّمداء لما يتلألأ من إشراق الضحى ؛ فلا يُدَاخِلْكَ في ذلك ريب ولا شك. وسيبقى سبب هذا البغض من سر الحب الذي لا يُعرف. ان بعض الاسرار فيه ضَربةُ العُنُق [٢] فلا يباح به وبعضها يكون فيه ألم النفس الكبيرة فلا يباح به كذلك ؛ ولكن أعلم انها هي هي وأنه انا هو. هي الكبرياء كلها لا تَستعْذِرُها من شيء فتُعْذِر ولا تسمح بشيء الا التَوَتْ به [٣] وأنا كبرياء الكبرياء ما خُلقتُ الا مُحْكَمَ المَعَاقِد لا أتثلّم ولا أتحطم، وتقلّبني في يدك ما تقلِّب عَضَلَةَ الحديد فلا تراها من كل جهة الا حديداً. هي يَمِينٌ حلَفَ الدهر بها لَيكذبَنَّ كذبة بيضاء مُغَشَّاةً يغرُّ بريقُها ويلتمع ماؤها لمَعَ السَّراب فتُبصر فيها الروح معنى الرِّي لتلتهب منها بالظمأ القاتل

---

(١) المحرور الحران ويتلذع يتضرم (٢) كالاسرار السياسية مثلا (٣) التوت غدرت ومنعت وأعذرت جعلتك تعذرها

يُفيضها على رمل ذهبي صبغته الشمس . . . وأنا ؟ أنا كلمة قد استوى ظاهرها وباطنها فاما أن تَصدق كلُّها واما أن تكذب كلها . كلمةٌ ليس فيها جزء محبوب وجزء مكروه فلا تحتمل ابداً معنيين . هي كالسيل تنحلُّ به السحُب ؛ وانا قِمةَ من الصخر الصّلد تغسلها السيول ولا تُشَـقِقّها

ثم هي من وراء ذلك كله فيها روح بلبل يفرُّ بأغانيه من ظل الى ظل في رياض الجمال ؛ واما انا ففيَّ روحُ نسر يترامى بصفيره من جبل الى جبل في قِفَار الحب . حاول العصفور الصغير الظريف أن يطوي النسر في جناحيه وهو لا يبلغ قصبةً في ريشة في جناح هذا النسر ، ولكنه . . آه ولكنه طواه في غير جناحيه

« * »

أين العقل في الحب والبغض ونخاصَّـةٍ اذا أَفرطتْ عليك اسبابهما ؟ أَمَا إن كل طريق يَنْفُذُ فيه الانسان على بصيرة الا هذين فان احدهما اذا احتَواك لم يُفْلِتكَ وأصبحتَ فيه كالذي يُطاف به الدنيا ويداه في قيد ، فهما

سوِّغ (١) من الحركة والاضطراب وهما انفسحت له الآفاق فان قدر ذراع من وثاق حريته الذي يشدّ يديه هو قياسُ دنياه في طولها وعرضها ما بلَغَتْ . فأنا على ما كنت أشعر من أن لي عقلين كنت أراني في ذلك الحب كأني بلا عقل ، بل كأني مجنون من ناحيتين .... ويُشْرِف عليَّ بغضها أحياناً فتَتَلَهَّبُ عليها في زَفَرات كَعَمعَمة الحريق (٢) حين ينطبق مِثْلُ الفَكِّ من جهنم على مدينة قائمة فيمضغُ جدرانها مضغَ الخبز اليابس . ثم يسرف عليَّ حبها أحياناً فينحطُّ قلبي في مثل غَمَرات الموت وسكَرَاته يتطوَّحُ من غَمرة الى غمرة . فأنا بين نِقْمة تفْجأ وبين عافيـة تتحول وكأنه لا عمل لي الا أن أصعد مئة درجة لأهبط مئة درجة . . . أما ماذا يردُّ عليَّ الصعودُ والنزول فسل قصَبَة الزّئبق (٣) ولا تسلني . انه سيَّال يتَرَجرج في القلب بين شيء مني وشيء منها ؛ وكانت عروقي كأنما ينصبُّ فيهـا أحياناً دمُ قتيلٍ فيهجم بالموت (الاحمر) على حياتي يريد أن يَغُولَها

---

(١) سوغ أبيح له (٢) صوت الحريق (٣) الترمومتر

ان تلك الفتاة لتُغضب الملائكة الذين لا يغضبون ؛ وقد خُلق النساء لامتحان جنون الرجال وخلق الرجال لامتحان عقول النساء ؛ وخلقت هي وحدها لجلب الجنون لا لامتحانه ....

« * »

أراني سأبتدئ أيامي من آخرها فاني لا أقصها عليك وهي تولد بل وهي تموت بعد أن تركتني كالقنبلة فرغ الحب من حشوها وتريد أن تنفجر . لم اكتب لك اذ كان هواها ناشئاً يَرْتَعُ ويلعب ، واذ كان ينكسر انكسار فرخ الطائر حين يَهْدِلُ جناحيه[1] لتمسحه أمه بجناحيها . ولا كتبتُ اذ كان هواها الجِدَّ أشدَّ الجِد واذ كان كالريح المُرْسَلة لا تقف ولا تنكسر الا اذا تدلَّى من السماء جدار يبلغ الارض أو رُفع من الارض حائط يبلغ السماء . ولا حين كان الهوى يركض بي ركض المجنون الذي يجري وكأنه يجري وراء عقله الذاهب على غير طريق ولا جادّة ولا

(١) يرخي جناحيه عند لقاء أمه

علم[١] فلا عقله يقف له ولا هو يدرك عقله . ولكني سأكتب وقد ركد الهوى ؛ وقد ماسحْتُ قلبي حتى لانَ من غضبه ؛ وقد اجتمع اليَّ رأيي الذاهب . ولا تحسبن اني سأخطُّ لك قصة فيها اليوم والشهر والسنة وفيها الزمان والمكان وذلك السخف الذي يطوِّلون ويعرِّضون به إذ يستنهجون سبيلَ الحادثة من حيث تبتدئ الى حيث تنحدر ، فان هذا مما يحسن في تاريخ صخرة تتدحرج أما أنا فسأقدم اليك تاريخ لؤلؤة فريدة . هم يعطونك بقية الليل يلمع في بعض جوانبها نور كوكب يظهر ويغيب . أما أنا فأضعك في ساعة من السَّحَر بين نسيمها وجمالها ورقتها وذبول الليل فيها ثم ينشقُّ لك الابيضُ ذو الحواشي[٢]

« * »

ودعني أذكر البغض مرة أخرى قبل أن أنساه .

(١) الجادة الطريق المستوية والمراد الجري اعتسافاً

(٢) الصبح من قول القائل

فلما شق ابيض ذو حواش له حال وللظلماء حال

إن اللين في القوة الرائعة أقوى من القوة نفسها لانه يُظهِر لك موضع الرحمة فيها ، والتواضع في الجمال أحسن من الجمال لانه ينفي الغرور عنه ؛ وكل شيء من القوة لا مكان فيه لشيء من الرحمة فهو مما وضع الله على الناس من قوانين الهلاك

اجمع يا عزيزي إن استطعتَ سِرْباً من الوحوش الضارية وَصَفِّفْها لوناً الى لون وصَنِّفْها شيئاً الى شيء فانك سترى في « جلودها » مكتبةً ضخمة من هذه القوانين .... والوباء الذي يحلق الناس حَلْقَ الشَّعر فيتساقطون ألوفاً ألوفاً بِجَرَّةٍ من يد الموت . والزلزال الذي يرجّهم في غربال الارض رجَّ الحصى يَنْفيه من هُنا وهنا . والمصائب التي تبسط العُقوبةَ على النعم في سطوة كَهَدِير الموجة العاتية حين تصارع العاصفة . والجميلة المغرورة التي تراها في أخلاقها من طِرازٍ كدماغ السكّير الفارغ مُزيَّناً بخيالات الخمر وسَوْرتها . كل تلك من « قوانين العقوبات » في العالَم الذي خُلق مُتَّهمين وقُضاةً ولا مَن يحامِي ...

وهذه التي سأقص عليك منها فلسفة الجمال والحب ، قوةٌ من القوى لم يجعل الله القسوة فيها الا لعامه بها ؛ وما ابتساماتها الفاتنة الا كسجن من البلور الصافي يختنق من يُحبس فيه وهو يتلألأ .... وكنت أراها أحياناً في جمالها وتأثير جمالها كأنها طاووس من طواويس الجنة على كل ريشة فيه لون من ألوان النار

نصيحتي لكل من أبغض مِن حُب أن لا يحتفل بأن صاحبته غاظته وأن يُكْبِر نفسه عن أن يغيظ امرأة ؛ انه متى أرخى هذين الطَّرَفين سقطت هي بعيداً عن قلبه فانها معلَّقة الى قلبه في هذين الخيطين من نفسه

ما من قُفَل بلا مِفْتاحٍ والا فما هو بقُفل ؛ والإهمالُ والازدراء وسموُّ النفس ثلاثةُ مفاتيح لقفل واحد هو قفل الغيظ

الرسالة الثانية

لقد هوّنتَ عليّ في كتابك حتى أخرجتني عن غيظي الى غيظ آخر . تقول : « وَيحَكَ أراكَ أخرجتَ القمر من دارتِهِ وجئتَ به على أعين الناس ؛ والا فمن تلك التي لمستَ الفلكَ الأعلى حين لمست قلبها فكأنما اجترأتَ على القَدَر فبِها حلَفَ ليُتيحنّكَ فِتنةً [1] تدعك وما يَلوي منك شيء على شيء . ومن عساها تكون هذه التي ليس فيها الا ما في الطاووس الميت من ريشه الجميل وهي مع ذلك رضاكَ [2] في الحب وفي البغض سواء » . ثم تقول : « ولعلها رفعتك الى الشمس والقمر والنجوم لانهم عشيرتُها وأهلُها . . . . فانت تخاطبني في رسالتك الاولى وكأنك مُرْتَفِقٌ [3] تحت جَناح جبريل او متكئ على بساط الريح فتصف ما لا عهد لنا به من كلام مفوّف كأنه غُرَفُ الجنة تفويفُها لَبِنَةٌ من ذهب وأخرى من فضة وتفويف كلامك

---

(١) ليقدرن لك فتنة (٢) اي كافيتك (٣) مستند الى مرفقة

جملةٌ من الحب وجملةٌ من البغض . وتنعتُ غراماً كأنما فُصّل لك ثوبه من سحابة يمرُّ فيها مِقراض البرق ففي كل ناحية منه فتقٌ من النار » . وتسألني : كيف أجعل نفسي كالميت فلا اكتب اليك الا يوم تحينُ الوصية . . . . ولا أخبرك الا وقد حُلّت عقدة القلبين وانفسخت أُلفةُ ما بينهما ؟

« * »

فيا ويحك ألا تعلم أن مِرْجَل الباخرة حين ينقلب ماؤه لهباً أبيض فوق اللهب الأحمر ؛ ينْفِثُ نَفْثَةَ المارد الممدود بسلاسله في قاع الجحيم ، فيرمي بسهام من الذَّرِّ المحرِق لو كان في جهنم رَهَجٌ يثور لما كان الا دُقاقَ ترابها (١) . أم تُراك لم تدرك من رسالتي أني أسع من بغض من أحببت فوق ما يملأني وان هـذا البغض وجه آخر من الحب كالجرح ظاهره له ألم وباطنه له ألم ، وما يمسه من ظاهره غير ما ينـكتُ فيه من باطنه . ام حسبت

(١) الغبار الدقيق والرهج والغبار واحد

أني أزين لك صور الكلام وأزخرفها بألوان لا تلتمسُ الا لرونقها وانسجامها وحسن تآلُفِها فمنها الأسود لانه اسود ومنها الاحمر لانه أحمر ومنها لون قلبها لانه لون قلبها . . . . ؟ كلا ثم كلا فلا تَتَهَدَّمْ عليَّ (١) بمثل ما كتبت واعلم انه هو ما وصفتُ لك وان السحابة التي تراها تدمع حيناً لا يبعد أن تراها قد تَلفَفَتْ على صاعقتها ثم اجتمعت أرجاؤها وبَوَاسِقُها (٢) ثم ارتجَّتْ ثم . . تنفجر

ولم اكتب اليك من قبل لأني أحب بلا غاية أباهيك بها ولا غرض أستعينك عليه ولا سر أستودعك اياه وهل رأيت الحب ينكشف الا في واحدة من هذه الثلاث ، وهل انكشف قط الا تتابعت عليه أمور وأمور وامتلأت منه الأنفس بالظنون والغفَلات ؟

لقد أحببت فتاة كأنها قصيدة غزلية في ديوان شعر لا خطبة سياسية في حفلة . . . . فما ثَمَّ الا معنى دقيق

---

(١) تهجم (٢) أعاليها وأسافلها

لطيف خلاّب ساحر ؛ كل قولي له : أريد ان افهمك وكل قوله لي تأمّل تفهم

إن ألذّ المعاني في هذا الجمال ما جعل ينبُو في يديك كلما ألقيتهما عليه كيلا تستمكن منه ؛ ففي كل نبْوَة يظهر لك منه جانب وأنت معه في ارتفاع وانخفاض أبداً ولا تزال تجري ويجري ، أما أنت فتشتدّ جهداً في سبيله ، واما هو ففي سبيل مَنْبَعِهِ من الجمال الأعلى الذي أفاضه موجةً منه فكأنك ذاهب الى الجنة حياً ، لا يمرُّ بك الا في روْح وريحان على طريق من لذة النفس لا تنتهي اذ هي من حيث لا نعرف الى حيث لا نعرف ، وتغدو كأنك في تلك اللذات الروحية طفل لا يَكْبَر ما دام في عمر الحب.

والحب الروحي الصحيح انما هو كالطفولة لا تعرف وجه الفتى الا شبيهاً بوجه الفتاة فليس فيه تذكير وتأنيث بل حالة متشابهة كاخضرار الشجر تبعث عليها الحياة حين لا يجيء الحسّ فيها الا من جهة القلب . وما أرى الشجرة حين تخضرّ الا قد نبتت فيها كلمة من قدرة الله ذاتُ حروف

كثيرة ؛ ولا الزهرةَ حين تتعطّر الا قد لاح في جمالها معنى بديع من حكمة الكلمة الالهية ، ولا الانسان حين يعشق عشقاً صحيحاً كما تُرَوِّحُ الشجرة وتنفطر[1] الا قد صار قلبه كتاباً من تلك الحكمة النقية الجميلة المعطرة

كذلك يكون هـذا الحب عند الذين خُلقوا للشعر والحكمة اذا هم اتصلوا به فانه لا يهبط اليهم من السماء الا ليملأ أوعيتَهم ؛ وفي هؤلاء خاصة يكون الحب الانساني هو السَّرَب[2] الذي يتخذونه سبيلَهم الى غَوْرٍ ما[3] في الأمواج الالهية العظمى التي لا تنتهي أعماقها فيغوصون ويخرجون وفي أيديهم أفْلاَذُ الحكمة ولآلئُها ؛ ومن شَفَتَي المرأة الجميلتين يخرجون للناس كلامَ السموات

أما الآخرون .... فتلك عقول كادَهَا بارئُها[4]

---

(١) أي على هذا الاسلوب الطبيعي الذي لا صنعة فيه حين ينفطر الشجر ويخرج اوراقه (٢) الطريق تحت الماء (٣) الغور العمق (٤) ارادها بسوء

عقولُ الناموس الاصغر العامل في حَرْث الارض . . . .[1]
يضم احدهم يديه على الجمال فيَتَلَقفُه فيجعل أصابعه أعواد
القفَص لهــذا الطائر ويقول له لَطالَما التمستُك في جو
السموات وطالما كنتَ وكنتَ فههنا فاستَقِرّ . ولا يراه
بعد قليل الا كما اغتَرَفَ غرْفَةً من الموجة ؛ كانت حركة
تفُور فاصبحت سكوناً هامداً ، وكانت ملءَ البحر فصارت
ملءَ الكف ، وكانت مَوْجَة فصارت .. آه فصارت
بصْقة . . . .

« * »

أقول لك أحببتُها لا كهذا الحب الذي تراه وتسمع
به في رواية تبتدئ وتنتهي في جزءين من رجل وامرأة ؛
ولا كالحب الذي يؤلفه الكتّابُ والشعراء حين يجمعون
عشرين معنى في كلمة او يُرسلون عشرين كلمة لمعنى . . . .
ولا كالحب الذي يباع ويُشْرى فتأخذ منه بالدينار اكثر

(١) في القرآن الكريم « نساؤكم حرث لكم » وهو مجاز
على التشبيه لا نظير لبلاغته يفهم معاني كثيرة فافهم . . . .

مما تأخـذ بالدِّرهَم .... ولا كالذي تجيئه وانت من الإشراق والنور كزجاجة الخمر فيعيدك وانت من الظُّلمة والسواد كزجاجة الحبر .... أحببتها ولا كالحب نفسه . منذا الذي قال : « من يُهلِكْ نفسه من أجلي يجدْها » ؟ أظنه المسيح وقد كانت هي تتمثَّل بها كثيراً [١] ؛ ولكن هذه الكلمة بعدُ كلمةُ الحياة الأزلية التي تقول للناس حين يشكُّون فيها : موتوا لتعرفوا . كلمةُ الجمال الاعلى الذي يقول للشمس حين تصفرّ : أغْرُبي لتُصبحي بيضاء حيةً في النهار . كلمة الحب الصحيح الذي يقول للمُبتَلَى به : تعذبْ لتعرف كيف تتخيَّل السعادة وتتمناها . كذلك تراني لا أحب الا لثلاث : لأعرف وأحس وأتخيَّل ؛ ولا أهلك بالحب الا لثلاث : لأُوجَدَ في نفسي وأبقَى في نفسي وأضمَّ نفساً الى نفسي

« ✿ »

(١) فتاة هـذه الرسائل سورية مسيحية تعرَّف اليها الصديق في لبنان ثم قدمت الى مصر اشهراً فاتصل بها ثم ضرب الدهر بينهما وسافرت الى حيث لا يدري بعد ان سافرت من قلبه

أفهمت ايها الصديق أم أزيدك ؟ هأنا أهبط عليك من الفلك الذي تقول اني لمسته حين لمست قلبها . فاعلم أني لا أحب فيها شيئاً معيناً أستطيع أن أشير اليه بهذا او هذه أو ذلك أو تلك ؛ حتى ولا « بهؤلاء » كلها . . . . انما أحبها لانها هي هي كما هي هي ، فان في كل عاشق معنى مجهولاً لا يحدّه علم ولا تصفه معرفة وهو كالمصباح المنطفئ ينتظر من يُضيئه ليضيء فلا يقتبسه الا من فيه قِدْحَةُ النور [١] أو شرارة النار ، وفي كل امرأة جميلة واحدة من هذين ولكن الشأن في تحرك القلب حتى يُدني مصباحه لتَعْلَقَ به الشعلة فيتقد وما يحركه لذلك الا القدَر . وما أحْكَمَ الناسَ اذ يقولون في بعض حوادث الحريق انها « وقعت قضاء وقدراً » ، فكل حريق القلوب لا يقع الا هكذا...

ومتى قَدَحَت الجميلة على قلب رجل أضاءته فيضيئها نوره بألوان من الحسن لا يراها ولا يدركها ولا يصدِّق بها الا صاحب هـذا القلب . فلو ان الشمس دامت تصبُّ

(١) الشعلة من النور

أشعتَها على طلعة هذه المراة الف سنة تحياها جميلة شابة لا تضعف ولا تَرِقّ سِنُّها [١] لما كشفت لأعين الناس شيئاً من تلك المعاني السحرية التي يكشفها ضوء قلب عاشقها لعينيه ؛ وما ضوء قلبه الا منها فلن تكون فيه الا ما أحبت ان تكون فيه

بَيْدَ أن مصائب المحبين انما تأتي من انقلاب المصباح فيستطير حريقاً لا ضوءا وترى النار تَعْتَلِجُ في القلب وذُؤابتها تتلوّى في الرأس ويُصْبِح العاشق مُرَنَّحاً [٢] بما اعتراه من الوَهَن والضعف كأنه في جملته وفيما لبسه من الهمّ والسواد ما تراه من بقية بيت محروق

« * »

رأيتها مرة في مرآتها وكانت قد وقفت اليها تسوّي خُصلَة من شعرها الاسود الفاحم المتدلى عناقيدَ عناقيدَ ولم يكن بها ذلك كما علمت بعدُ ؛ وانما ارادت ان تطيل نظرها فيَّ من حيث لا استطيع ان اقول انها هي التي تنظر

---

(١) كناية عن الهرم (٢) متساقطاً من الضعف

فان ذلك الذي ينظر كان خيالها . . . . فلما انتصبت الى المرآة خُيِّلَ اليَّ أني أرى ملكاً من الملائكة قد تمثَّل في هيئتها وأقبل يمشي في سحابة قائمة من الضوء ؛ أو أن يد الله في لَمْح النظرة قد رسمت هذا الجمال على تلك الصحيفة يتموَّج في ألوانه الزاهية ؛ او هي قد ارادت ان تبعث اليَّ بكتاب يحتويها كلها ولا يكون في يدي منه شيء فأرتني مرآتها

ألاَ فاعلم أن هذه التي في المرآة وهذه التي امام المرآة وهذه التي هي في قلبي ؛ ثلاثة في واحدة . لو هممتُ ان أضع يدي عليها فرت من يدي لتختبىء في مرآتها وتفرّ من المرآة لتختبىء في قلبي . فكأنما كنت أعشق مخلوقة من مخلوقات الأحلام لا تُدرك بجميع أجزائها واذا أُدركت بقيت وهماً لا تناله يد . وهي كالملائكة قادرة على التّشَكُّل إلا أنها تتشكل في الذهن فبينا تراها شخصاً جميلا اذا هي فكرة جميلة تتعطف عليها حواشي النفس ، وبذلك تستطيع أن تشعِرني انها فيّ وان كان بيننا من الهجر بُعْدُ

المشرقين ؛ وأن تنزل بالسلام على قلبي وان كانت هي نفسها الحرب؛ وأن تجعلني أحبها وان كان بغضها يأ كل من جوانحي

تراها مع أيّ أحوالها كالسعادة تَخَيَّلُها هو هي

ولولا ذلك ما احتملتُ غضبها وإن لها لَغَضَباً تَجمحُ فيه فتملأُ جوَّ النفس بمثل الغُبار الذي يُثيرُهُ الجَواد الكريم اذا انْجَرَدَ للسَّبْق وترك أعناق الخيل تتقطّع عليه ولا تلحقه فتراه يغضب ويتميّز ويحاول ان يسبق جلده وأن يخطف أرض الله كلّها في حوافره. تغضب على أسلوب من هذا الطراز او من طراز البحر الزاخر حين يَتَقَلّع في أيدي الأعاصير او من طراز الارض حين تَتَخَلّع في أيدي الزلازل. وأحياناً من الطراز الرقيق حين تتجاهل في غضبها حباً هي بعضُ تاريخه فتدعه يشعر أن فيه مكاناً مجهولاً وأن من قلبه قطعةً منزوعة. ومرة من الطراز العسير حين تلوي وتعتقد حتى تتركني وكأني ما اجد في الدنيا مكاناً لستُ فيه ولا مكاناً هي فيه :

وكل هـذه الاساليب شروحٌ وتفاسير ؛ أما المعنى الذي تدور عليه فهو هذا : داء الحب نقـداً والدواء عند السين وسوف .... عند هـذه الجملة التي هي أكذبُ ما في الصدق عند محبها وأصدقُ ما في الكذِب على محبها

الرسالة الثالثة

« حيلة مرآتها »

حسناء ، خالقُها أَتَمَّ جمالَها
سأَلته مُعْجِزَةَ الهوى فأَنالَها
لمـا حبَاها اللهُ جلَّ جلاَلُهُ
بالحسن منفردًا أَجلّ جلاَلَها
تُضْنِي المحبَ كأَنما أَجفانُها
أَلقت عليـه فتُورَهَا وملاَلَها
هيفاء قد حسب النسيمُ قوامَها
غُصنًا فان خطر النسيمُ أَمالَها
سيَّالةُ الأَعطاف أَين ترنَّحتْ
تُطْلِقْ لـكَهْرَبة الهوى سيَّالَها
طلبوا لها شَبَهًا يُضيء ضياءَها
لهوى النواظر او يُدِلُّ دلالَها

أَما السما فَجلَتْ عليهم بدرَها
والأرضْ قدعرضت لذاكَ غزالَها ...
لـكنها نظرت فأَخجلت الظّبا
وتلفتَتْ للبدر فاستَحْيَ لها
هم يطلبون مِثالَها فليرقبُوا
مرآتَها يجـدوا هناك مِثالَها

* * *

مرآةُ فاتنـةِ النفوس وصفحة
تتلو بهـا أَرواحُنَا آمالَها
لما عجزنا أَن نفصّلَ وصفَها
جمعتْ لنـا مرآتُها إِجمالَها
واهاً لمرآة البخيلة لو رَثَتْ
يوماً فأَهدتْ في الجفاء خيالَها
تتلألأُ الضحكَاتُ في جنبَاتِها
فتخالُ ضوءَ الشمس هزَّ صقَالَها[1]

(١) صقال المرآة ماؤها ورنقها

من ثغرها؛ من منبع النور الذي
نبعتْ به ضحكاتُها فأسالَها
تتنقّلُ اللحظاتُ في أنحائها
قتلُها مُستتبعٌ قتلَها
جرحتْ بها وبُهدبِها وكذا الهوى
أبدًا يعدُّ من السيوف ظِلالَها
حُوريّةٌ شهدت لها جنّتُها
وجمالُ عينيها شهادتُها لها
وكأنما المرآةُ من أفقِ السما
وكأنها ماك يلوح خلالَها

« ✡ »

وقفت لها يوما فألقت نظرةً
حيرى تُشابه وعدَها ومطالَها
نظرت بلحظ نافذ لو أنهُ
لقي الارادة نفسَها لاغتالَها

نظَراتِ حواء التي أوهب بها
عزمات آدمَ يوم ضلّ ضلالها
فرأت على المرآة وجهاً . خلْتهُ
ملَكَ الجمال يحاولُ استقبالَها
راع المليحةَ منه فرطُ جماله
أم راعها أن لا يكون جمالها ؟
فرنتْ بنظرتها اليه تحيله
ورنا بنظرته لها فأطالها ....
لحظان لو رجَفا عليك ترَاجفتْ
كرَةُ الفؤاد فزُلْزِلَتْ زِلزالَها

« ✿ »

نظرت لها حسناً اذا ما احتلّ في
دُوَل النُهى سلب النهى استقلالَها
ورأت لسحر جفونها ما راعها
ورأت افتك لحاظها ما هالها

فتذكرت شمسُ الجمال متيماً
تركته من فرط النحول « هلالها »
ما زال يشكو « الصدّ » حتى بغّضت
في نفسه « صاد » الحروف « ودالها »
ورأت صفا المرآة يشبه قلبه
مهما تحمّله يكن حمّالها
فتنهّدت أسفاً عليه وأنشأت
عبراتُ رحمتها تجول مجالها
حزعت له يعنى العناية كلّها
وتريه كلّ ثوابه إهمالها
حالان خيرهما وشرّهما سوى
ومن المنافع ما يجرّ وبالها
جهدُ المقامر أن يحاول حيلةً
ولكم أضرّت حيلةٌ محتالها

والعمر آمالٌ وما جَلَبَ الشقا
الا ابتغاء الطامعين محالَها
ان الذي أعطى النفوسَ عقولَها
جعل القناعةَ للنفوس عِقالَها

« * »

جرت الخواطر بالمليحة لحظةً
شغلت بأحزان المتيَّم بالَها
فبدا عليها بعضُ ما قد ناله
وبدا عَلَى المرآة ما قد نالَها
ورأت لها وجهاً تغشَّاه الأسى
والحسنُ قد منع الأسى أمثالَها
كادت تقول «رضيتُ عنه» فأمسكت
ومضت عَلَى عجل لتُخفيَ حالها
أوَّاه لو مرآتها نجحت .... ولو
فَمُها تبسَّم عنــد ذاك « وقالَها »

١٢٩٣٩

الرسالة الرابعة

ما أحلاه كلاماً وأنداه على كبدي هـذا الذي تقوله في كتابك : « لو كانت تلك الفتاة الساحرة شجرة يابسة قد تحاتَّت[1] وكان النساء كلهن شجراً أخضر لأورقت عليك وأثمرت ، فان فيك وفيها القوةَ والسبب ، ومن مثل هذه القوة وهذا السبب تخرج معجزاتُ الحب » .

آه لو صح ذلك . ان بعض الرجال يكون في صفاته كذباً على الرجال فهذه والله كذبٌ على النساء ولو جاز لقلتُ إنها وُلدت خطأ في هذا الجلد : بل ما وضعها الله فيه الا لعامه بها وليجعل منها علماً لمن شاء أن يدْرُس بروح الرجل المحب أو المبغض جمالاً شاذًّا في روح امرأة تحتمل الحب والبغض معاً . لم يكن فيَّ وفيها القوةُ والسبب بل القوةُ والقوة ، وما كنا الا كدولتين متحالفتين تمنع قوتهما أن تعتديَ واحدة على واحدة ، ويشُقُّ ذلك عليهما فتعبِّران

(١) تساقطت اوراقها من اليبس أو عارض ما

عن لفظ القوة بلفظ أرقّ وأجمل وهو المحالفة ؛ ثم يرق هذا اللفظ فيخرج منه الصداقة ، ثم ترقّ هذه فيجيء منها الحب . ولا حبّ هناك ولا صداقةَ ولا محالفةَ بل هي أساليب سياسية في لغة القوة حين تخشى وحين تطمع

لقد أذكرتني بالشجرة اليابسة يوماً جميلاً وكلاماً أجمل منه فانا باعث به اليك وان كان قد بَعُدَ به العهد اذ وقع اول معرفتي بها في قرية . . . بلبنان . هناك زهر أصفر يلوح للعين كوجوه الدنانير يسمونه « الوزّال » وهو طيّب الرائحة ولكنه خبيث النبْتَةِ لا يكون الا في مثل الرماح من الشوك . وكان لها ولعٌ شديد بهذا الزهر اصَبْغ من أشواكها واشواكه فقد نلتُ من كليهما .... وسنحَتْ لها على زهرة منه فَرَاشة زاهية مصبوغة فوثبت اليها واشتدت وراءها وكانت الفراشة تفوتها وتَسْتَطْرِدُ لها وتعبث بها عبثاً بين أن تلوح وتختبيء . ثم رجعت « الفراشة الكبيرة » بعد ما انقطعت وقد تزاحمت الأنفاسُ على صدرها وجعل قلبها يغيظني بدقّاته غيظاً شديداً إذ كان يخفُق من البُهر

والإعياء لا من شيء آخر . . . وتساقطتْ تحت شجرة من التين فلما أَرَاحتْ وثابتْ اليها نفسُها قالت : فراشةٌ لا تبلغ عقْدة إِصبع من ثوبي وتُعنِّيني هـذا العناء كله ثم أرتدُّ عنها خائبة ؟ قلت بل خائبة خيبةَ المفلس يعدو يومه وراء « الدينار الطائر » فلا يدركه . فاجتذبتها اليَّ كلمـة « الدينار الطائر » ومن خصائصها أنها لا تُعجب بشيء إِعجابها بدقة التعبير الشعري وسأستوفي لك هذا في رسالة أُخرى . انها تريد أن تجمع الى صفاء وجهها واشراق خدَّيها وخلابتها وسحرها ؛ صفاءَ اللفظ واشراقَ المعنى وحسنَ المَعرِض ، وجمال العبارة وهذا هو الحب عندها ؛ تحبك كما تحب كلمةً تكتبها او معنى تتخيَّله فاذا سئِمتك لم تكن عندها الا الثالثة . . الا صحيفةً تمزّقها . . . .

« * »

ورفعتْ رأسها الى الخيمة الخضراء ثم قالت : هـذه شجرة تين . قلتُ وماذا في أنها شجرة تين ؟ قالت ألا تعرف تينة الانجيل ؟ قلت وان في الانجيل لتينةً ليست

كغيرها ؟ قالت كان من خَبَرِها [1] أن المسيح مرَّ في جماعته وهو جائع فرآها من بعيد فَيْنانةً خضراء تهتزّ كأنها تدعوه ولم يكن إبَّانَ هذه الفاكهة ؛ فَعَدَل اليها لعله يجد فيها شيئاً يَطْعَمُهُ فلم يجد غير ورقها الذي لا يُؤْكل فقال لها : خَسِئْتِ لا يأكلنَّ منك أحدٌ ثمراً بعد اليوم . وانحدروا الى أورشليم ؛ ولما أصبحوا انقلبوا فمرّوا بشجرة التين فاذا هي خاويةٌ قد نزعت ثوبَ نَضْرتها والتفَّتْ في كَفَن من اليُبْس وماتت واقفة . فرماها بطرس بعينيه وقال انظر ياسيد ان هذه التينة التي مَرَدَتْ عليك فلعنتَها قد ماتت وثراها حيٌّ بعدُ

قلت هذه لعَمْري هي المعجزة ، تموت الشجرة وثراها حيٌّ وتجري اللعنة في أعوادها فتتشرَّب ماءها وتتركها يَبَساً لا تصلح الا للحريق ، وتنقلب الشجرة الخضراء فى ليلة من خشب الله الى خشب الناس . ولكن ما ذنبُ

---

(١) هذه القطعة من انجيل مرقس وقد ترجمناها من عربيتهم . . . الى عربيتنا

الشجرة المسكينة اذا لم يكن موعدَ فاكهتها ويريدها المسيح على غير طبيعتها ؟ قالت فان الذنب في اخضرارها كأنها ذاتُ ثمر . قلت اوليس للثمر وقتٌ قد مضى وهل الشجرة الا شجرة ؟ أم تحسبينها تُدير الشمس وتقلب الفصول لتَعْقِدَ الماء ثمراً حلواً ؟ ألا إن الشمس تدور ثم يحين الفصل ثم ينعقد الماء ثم يحلو التين فينضج فيؤكل . قالت انك لتجيء بالدواهي فماذا تقول انت ؟

أقول اعلمي أن فيلسوفاً يونانياً كان قبل المسيح (١) وكان يرى ان تلك الشجرة ومثلها مما سَفَلَ وعلا من قدم الكون الى ذؤابته انما هي الارادة البشرية بعينها الا أنها لم تكتمل لعلة ما ، فكأن العالم عند هذا الفيلسوف إنسانٌ غيرُ سَوِيٍّ ذهب طوله في عرضه فلم يُعرف شيء من شيء ، وكأن الانسان هو العالم الذي نما وتم . فالشجرة ان لم تكن من الارادة كما يقول هذا الفيلسوف فهي من الحياة وقد التقى منها ومن المسيح انسانٌ حي وشيء حي ؛

---

(١) هو سيدوكليس كان قبل المسيح باربعة قرون

والتقيا على خِلاف انقلبت فيه الى حياة ذات إرادة، وارادة ذات كبرياء، وكبرياء في رُعونة يختال بها جِذْعٌ خشبي غائر في الارض على جذع روحاني باسق في السماء؛ وتتيه عُشْبَةُ الطين على زهرة الفلَك الأعلى. والكبرياء كانت من شرها اولَ ما تمرَّد به الشيطانُ على الله [1] واولَ ما لعن الله به الشيطان وحَسْبُها من الشر أنها ذهبت بجميع حسَنات شيخ الملائكة (كان [2] . . .) فهوى بعدها من لعنة الله في اعماق لا تنتهي ولا يزال فيها طائرًا الى أسفل . . . . وما برحت هذه الكبرياء ثقيلةً على الارواح الصافية الكريمة ولو كانت ممن تحقُّ له، ولو كانت من شجرة تحييها الشمس ويقوم على حفظها ناموس الكون والمسيحُ لم يفرَّ الى ظلها من حر بل الى ثمرها من جوع؛ فلما أتاها بجوعه تلقَّته بزَهْوها. قال لها بلسان قلبه العظيم ها أناذا، فقالت له وها أناذه أخرى غير التي تريد. ظل جائعاً وظلت خضراء تَتَموَّجُ لعينيه شبعاً وريًا ما تستحي ولا تتواضع بجَفاف ورقة منها

(١) حين تكبر فابى السجود لآدم (٢) أي سابقاً

تسقط عُذْراً عند قدميه . كانت في غير حالته القائمة بروحه وكان في غير حالتها القائمة برُوحها ؛ فكل ذنبها في روحه هو وفي حالته هو وفي حِسه هو ؛ فاشمأزّ منها فيبست ولعنها فماتت ورآها ظلاماً فأطفأ سُنَّتَها الى الأبد . هكذا يفعل الروح الأقوى بالروح الاضعف حين يختلفان والمتكبر دائماً هو الأضعف وان ظهر انه الأقوى ؛ فلو صدمته روحٌ عاتية بما فيها من بغضه وازدرائه لوقعت منه موقع أظلافِ الفيل من النملة الضعيفة ؛ فان فوق كبرياء المخلوق ناموساً ثابتاً من كبرياء الخالق ما لجأ اليه مكسورُ القلب بكاسر قلبه الا وضعه والله ثَمَّتَ موضعَ حبَّة القمح تحت حَجَر الطاحون الضخم لا يُبقي ولا يذر

« * »

وكنت اتكلم وكأني مُرْتَفِقٌ تحت جناح جبريل كما قلتَ وان الكلام لينفذُ الى دمها مع أنفاسها فما أتيتُ على آخره حتى رأيتُها قد اصفرّت وارتاعت وقالت ويلي منك فهل أنت مسيح جديد ؟ إني لأَسمعُ الفاظك هذه وكأني اسمعُها

من يوم بعيد لم يأت بعدُ ولكنه آتٍ لانه يتكلم ويقول بكلامه أنا موجود وان كنت بعيداً عنكِ . فأردت أن أخفِّف عنها فرفعتُ طرفي الى خيمتنا وقلت : اسمعي يا شجرة التين . . . . فانفجرت ضاحكة وقالت كم قلت لي أنتِ دُوَيهيَةٌ وزعمتَ ان هذا يسمونه تصغير التعظيم فأنت دُوَيْهِيَتان . فضحكتُ وقلتُ أولست معي . . . .

لقد حلَّ ذلك اليوم الذي سمعتهُ يتكلم في الغيب ، وآه من تلك الدويهية ومن كبريائها وفلسفتها . آه من فتاة تقول لك فيما تقول : ان أمي ولدت نفسي ونفسي هي ولدتني فلا ترْجُ أن تصيب فيَّ طباعَ أنثى والا ضَلَّ ضلالك ايها الحبيب . . . قلتُ فماذا بقي من معنى ايها الحبيب اذَن ؟

فضحكت من عبوسها — وهي حين تتفلسف تُظَلِّلها سُحُبٌ من الفكر فتراها قد غامت فيها ولا يبقى لك أمل الا في وميض من ابتسامها يلمع أحياناً كما تنظر للشمس من فَتْق في السحاب يتمزَّق ثم يُسرع فيلتئم — أتدري ماذا كان جوابها ؟ قالت خُلِقنا لهذا الحب من قبل يومنا ؛

وبعد يومنا اذا جاء كان يومَ بغض منك أو مني . قلت فمعنى « أيها الحبيب » في فلسفتكِ أيها البغيض . . . ؟ قالت كلا كلا لا أدري ولكني أتكلم بلغة النطق ؛ وفي ناموس الفهم الانساني لغةٌ غيرها وفي ناموس الأقدار لغةٌ غير اللغتين . فانك لتراني ولكني أرى في أخرى والأُخرى ترى فيها ثالثة . هذا أشعر به ولا أدري كيف أصِفُه فان عبَّرتُ عنه بلغة النطق انقلب كلامي عن جهته فصار من كلام الموَسوسين والمَمْرورين والمجانين . أنا أُحسن الكلامَ مع السماء وأنت تحسن الفهم عن السماء ، فحاجتي اليك هي أن تتكلم في روحي وحاجتك اليَّ هي أن أتكلم في قلبك

أتستطيع أن تلبِسني جلدك وتَخِيطَه عليَّ و . . فقلت مهلاً مهلا انك أنتِ الآن لا تتكلمين ولا التي فيك بل تلك الثالثة . . . واذا كان استهلالُ كلامها سلخَ جلدي . . . . وهنا وضعت يدها على فمها وجعل يَنغتُّ ضَحِكها ويتكسَّر على صلابة قلبها تكسر قِطَع البلور الثمين في غير نظام ولا مَهَل

ولما سكنتْ مما غَشِيها قالت أنت برهَمي ؟ قلت وهذه شرٌّ من الأولى فهل خطر لكِ أني أعبد بقرة ؟ قالت وهذه شرٌّ من الاثنتين فقد انتقمتَ مني بلطف . . . . ولكن ألا تعرف ان الحب في رأي اكثر الناس كزواج البراهمة ، اذا اقترن الرجلُ منهم بامرأة فقد أعدَّها للحرق إن بقيت بعده وللموت ان بقي بعدها ؟ قلتُ أعرف هذا في عَقْد البراهمة وحَسْبُ فلا تَنْزُ بك الفلسفةُ نَزْوتَها فلسنا في النار ولا في دخانها . قالت وما تقول في نار تَعْرِفُها ؟ ولفظتْ هذه العبارة بصوت خرج يرتجف كأنه جاذَبَ قلبها وفرَّ اليَّ فراراً ؛ وأنزلتْ في مقطعها نَبْرَةَ استفهام حلو رقيق يمازجه شيء من التوبيخ في منتهى الظَرف

فأطرقتُ شيئاً وقلت اسمعي ؛ ما أنتِ محاطةً بست جهات بل بست علامات استفهام ؛ وان فلسفتك هذه جعلتك ما لا أدري أُلغزاً في إنسانة أم إنسانةً في لغز ؛ وعلى أيِّهما فان العمر يذهبَ في فهمك وأحتاجُ بعد الى عمر جديد في حبك وان تبعثَني فلسفتك من قبري يوماً اذا

سُوِّيت بجسدي الحفرة . لقد وضعك حسنُك في طريق موضع البدر يُرى ويحَبُّ ولا تنالهُ يد ولا تَعْلَق بنوره ظُلْمةُ نفس ، لكن كبرياءك نصبتك نِصبةَ الجبل الشامخ كأنه ما خُلق ذلك الخَلقَ المنتثر الوَعْر الا لتدقَّ به قلوبُ المُصْعِدين فيه وتهتزَّ أجراسها اهتزازاً عنيفاً متصلاً في حبال الانفاس والزفَرات . كوني من شئتِ أو ما شئتِ ، خَلْقاً مما يَكْبُرُ في صدرك او مما يكبُرُ في صدري . كوني ثلاثاً من النساء كما قلتِ او ثلاثةً من الملائكة ولكن لا تكوني ثلاثة آلام . انفحي نَفحَ العِطر الذي يُلْمَسُ بالروح واظهري مظهر الضوء الذي يُلمس بالعين ولكن دعيني في جوِّك وفي نورك . إصعدي الى سمائك العاليـة ولكن ألبسيني قبـل ذلك جناحين . كوني ما أرادت نفسُكِ ولكن أشعري نفسَك هذه اني إنسان

« * »

أيُّ حبٍّ هذا ؟ لقد امتُحِنْتُ منها بفتاة أبحثُ عنها في النساء فلا أجدها وأبحث عنها في نفسها فلا أجدها ؛

وكل تاريخ هواها كالرحلة في أغفال الأرض ومجاهلها[1] :
يأخذ الرحالة رجاءه بالمشي على قبر في عرض الصحراء
ويكون له من الحذر في كل بادرة عقل ؛ ولا يزال
يلفظه مجهل الى مجهل ، ولا يزال يتتابع في تلك الارض
التي تغول سالكيها[2] حتى يقطع الى معروفها منكراتها
جميعاً . . . .



(١) الاماكن المجهولة والمغفلة (٢) تهلكهم ببعدها ومصاعبها

الرسالة الخامسة

﴿ أيام لبنان ﴾

فجرُ الهوى من ثغرها البسَّامِ
متطايرُ اللَّمحات فوق ظلامي
رفَّتْ عليَّ ظِلالُه وتنفَّست
بندَى الشباب على فؤادي الظامي
ذهبت همومٌ حرْتُ في اسمائها
واتت همومٌ ما لهن أسامي
في حبها والحبُّ في بأسائه
أهنا لأهليه من الإنعام
حسناء صوَّرها الهوى في صورة
كادت تُعيد عبادَة الأصنامِ
في منظر الأقمار ألمحُ وجهها
وتُحِسُّ في لمس النسيم غرامي

ولكهرباء الحب من لحظاتها
سيالُها المتدافعُ المترامي
ينسابُ في مجرى دمي متلهباً
فكأنه تيارُ بحرٍ ضِرامِ
يا كهرباءَ الحب رفقاً إنما
هذي «الأنابيبُ» الضِّعافُ عظامي

« * »

ذهب المنامُ ومن يُذكّرهُ الهوى
قمراً فلا يلقى الدُّجى بمنامِ
يا ليلُ أنتَ صحيفةٌ ملءُ الفضا
ءِ وما بها سطرٌ من الأحلامِ
في كل نجم من نجومكَ بَسْمَةٌ
وقفت تُشير الى الهوى بسلام
وكأن أفقكَ والنجومُ سطورُهُ
تاريخُ ما أسلفتُ من أيامي

مُتَأَلِّقُ الجَنَبَات مَشْبوبُ الضيا
خَضِلُ الندى صافي الشمائِل سامي
يا ليلُ أين الفجرُ أين زمامُهُ
ايامَ يُمسكه الهوى بزمامِ
أيام «لبْنَان» وكانت ساعةً
غفرت ذنوبَ الدهر في أعوامِ
غَفَل الزمانُ هناك من غَفَلَاتهِ
ففررتُ لِلَذات من آلامي
وقطعتُ من ثوب الشباب عِصَابةً
وربطتُ من جُرْح الحياةِ الدامي
ومضيتُ أصعدُ ذِرْوَةً في ذِرْوَة
كالنجم مشتملاً عليَّ غمامي
في كل مَنْزِلةٍ وكل ثَنِيّةٍ
يضعُ الهوى قمراً يضيء أمامي
وعلوتُ حتى عن أمانيِّ الحيا
ةِ وغِبْتُ حتى غبتُ عن أوهامي

وسموتُ في أُفُقٍ يذوب نسيمهُ
شغَفاً اذا ما اهتزَّ غصنُ قَوام
أُفُقٌ يُطِلُّ على الحياةِ وهمِّها
إطلالَ مَغْفِرةٍ على الآثامِ
لُبْنانُ فنٌّ في الطبيعة قائمٌ
دقَّتْ محاسنُه على الأفهامِ
متكبرٌ حتى على إكبارها
متعظمٌ حتى على الإعظامِ
قِمَمٌ تَغَطَّى بالسماء كأنها
في الكون أمثلةٌ على الإبهامِ
شُمٌّ فوارِعُ علَّمتْ أبناءها
عند الحوادث كيف رَفْعُ الهامِ
ومَدارجٌ تُنبيكَ مُنْحَدَراتُها
أن الحياةَ مَذاهبٌ ومرامي
تركتْ بنيها أينما حكمتْ بهم
نَفَذُوا على الأسباب كالاحكام

وترى هنالك كلَّ شيء ناطقاً
أن لا يعيش هنا سوى المِقدامِ
جَبَلٌ تمنَّع في الطبيعة عِزَّةً
ومهابةً كالناب في الضرغامِ
يتقلب التاريخُ من أبنائِهِ
في الغُرِّ بين فوارسٍ وكِرام
فالنُورُ لم يَبْرَحْ على أرجائه
من مَبْسَمٍ أو من فِرِنْدِ حُسامِ
جَبَلٌ اذا وصفوا الرواسيَ لم يكن
أبداً لصدر الارض غيرَ وِسامِ

((*))

يا نَفْحَةَ الجنَّات من تلك الرُبَى
كم ذا يطولُ تلهُّفي وهُيامي
بيني وبينكِ بحرُ دمع يرتمي
من عين مهجورٍ وبرُّ خِصام

لهفي على ريح الشآم ونظرةٍ
من أرضها لهوًى هنالك نامي
أرضٌ بنوها الصِّيدُ كيف تَواثبوا
عَنَت الحياةُ لهم بكل مَرام
حملوا النبوَّة وهي روحُ بلادهم
ومضَوا بوحي العزم والإقدامِ
وهُمُ باي الارض حلَّ نزيلهُم
قومٌ قضت لهمُ السما بمقام
أرضٌ كساها الوحيُ جوًّا عاطراً
وبنى لها أُفُقاً من الأنغامِ
اللهُ زيَّنها بكل بديعةٍ
باحتْ بأسرار من الإلهام
فهُنا يُريك الحسنُ صفحةَ شاعرٍ
وهنا يُريك صحيفةَ الرسّامِ
والحسنُ مختلفُ المواطنِ في الورى
لكنما حسنُ الطبيعة « شامي »

الرسالة السادسة

تقول أيها العزيز : « فصِفْها لي على حقِّها [١] وصفها على هواك بما يُزَخْرِف الهوى من كَذِبه وانقلها اليَّ من مرآتها نقلاً ووافني عنها برسالة كليلة من ليالي القمر في الصيف تتنفَّس كلُّ ساعة منها برائحة الفجر » . آه ما كان لي ولهذا البلاء الجميل ... فان عهدي بهذه النفس أنها مُصَمِّمة حكيمةٌ اذا فزعت تفزع الى ضِرْس حديد واذا همَّت أمضت عزيمتها فما يَنِدُّ منها شيء الا ضَبَطَتْه [٢] وأحكمَتْه ؛ وان عهدي بهذا العقل أنه نافذ دَهِيٌّ ذو حرب وسِلْم في أساليب الحكمة والسياسة . ولكن الانسان يُبتَلى ثم يُبتلى ليعرف ان كل ما فيه إنْ هو الا وديعةُ الغيب فيه ؛ فما شاء الله نفع وان كان سبباً من الضُّر ، وما شاء الله ضرَّ وان لم يكن الا نفعاً ؛ والاسباب كالعمر لا يملك الانسانُ

(١) على حقيقتها (٢) لا يفلت منها الا أمسكته والضرس الحديد كناية عن العقل والرأي القوي

استمراره لحظةً واحدة وقد يستمر على ذلك ما يستمر

ان وصفها لهمٌ جديد وانها الآن في نفسي غير من كانت فالكتابة عنها ضَرْبٌ من العَنَت كالترجمة من لغة الى لغة فلولا كان ذلك والهوى متفقٌ ؟ ولكن يا شمس السماء مُجّي من ريقك على هـذا القلم حتى ينسج وشْيَه وزُخْرُفه واجمعي في هذه الصحيفة نورَ الابتسام وماء الدمع وأَخرجي منهما ما يخرج النباتُ من الضوء والماء زهراً وثمراً وورقاً أخضر . . وحطباً يابساً بَعْدُ . . . .

« * »

أمَا إِنها فِتنةٌ خُلقت امرأة فاذا نظرتْ اليك نظرتها الفاترة فانما تقول لقلبك اذا لم تأت اليَّ فانا آتية اليك ؛ خُلقت مقدَّرةً تقديراً كأن كل شيء فيها وضع قبل خلقه في ميزان الجمال ووُزن هناك بأهواء القلوب ومَحَابِّها . وكأنها بعد أن تم تكوينُها أرسلت الملائكةُ في دمها نقطة عطر فهي تَنفَحُ على القلوب برائحة الجنة . وهي ابداً تشعر أن في دمها شيئاً لا يُوصَفُ ولا يُسمَّى ولكنه يجذب ويفتن فلا

تراها الا على حالة من هذين حتى ليظنها كلٌ من حادثها أنها تحبه وما بها الا أنها تفتنه

رشيقةٌ جَذَّابة تأخذك أخذالسحر لان عطر قلبها ينفذُ الى قلبك من الهواء ؛ فاذاتنفَّستَ أمامها فقد عشقتَها

وتراها ساكنةً وادعةً أمامعينيك ولكن قلبك يشعر أنها تهتز فيه وتضطرب فلا يزال قَلِقاً نافراً يَتَمَلْمَل

أما أُنوثَتُها فاسلوبٌ في الجمال على حِدَة ؛ فاذا لقيتَها لا تلبث أن ترى عينيك تبحثان في عينيها عن سر هـذا الاسلوب البديع فلا تعثر فيهما بالسر ولكن بالحب . واذا كنت ذكياً فأضافت الى ما فيها من بواعث الهوى إعجابها بك فقد أحكمتْ لك العقدةَ التي لا حلَّ لها

ومهما تكن من رجلٍ باذخٍ فانك بإزائها ترى كيف ينقادُ جزء من الطبيعة لجزء من الطبيعة فلا براءةَ لك ولا مَخْرج من حبها ؛ ومهما تكن من جبل شامخ فانك تتهافَتُ تحت أشعة عينيها كما تتدحرج جبالُ الثلج في القُطْب اذا

زاحهَا عما حولها شعاع رقيق من اشعة الشمس تتنهَّدُ فيه نسمة ضعيفة

وهي في لونها ذاتُ بياض أسمرَ مُحْمرٍّ وَضِيءٍ يَغْتَرِقُ العينَ حُسناً وكأن ائتلاف الالوان الثلاثة فيها جملةٌ مركّبة من لغة النور والهواء والحرارة ، معناها الجمال القوي الصحيح . هيفاء مُلتفّةٌ لم يَهْبِط جسمُها ولم يَرْبُ [1] تملأ قلبك كما تملأ ثوبها . وتمايلُ أعطافُها فلو خُلق غصنُ البان امرأةً لمشى يتهادى في مثل مِشْيتها . وتنظر نظرةَ الغزال المذعور أُلْهِمَ أنه جميل ظريف فلا يزال مُسْتَوْفِزاً يَتَوَجَّسُ [2] في كل حركة صائداً يطلبه . . . . وتنفجر لعينيك في حركاتها وكلماتها كما يتفجّر امام الظمآن ينبوعُ الماء العذب . وما رأيتُها مرة الا أحسستُ نفسي تُصوِرها تصويراً كأن الشمس والقمر قد صنعاها في الحسن صنعةً جديدة . وتَنْتحِلُ هذه الظبيةُ احياناً كبرياء الأسد فيكون

(١) لا سمينة فضفاضة البدن ولا هزيلة نحيلة

(٢) يخشى والغزال دائماً كالمذعور

ذلك منها في باب الدلال مخاشنةً بين طبعي وطبعها تبثُّ بها في الحب قوةً تبلغ قوةَ الافتراس في أسد جريح

تريد الهوى وتعرفه وتنفخ في ناره وتُذْكي ضِرامها بما لا يخمد ولا ينطفىء ولكن .. ولكن لترى من كل ذلك كيف أحترق

تلك هي أيها العزيز: من أيّ الجهات اعتبرتَها لا ترى أوصافها تنتهي الا كما تنتهي أطرافُ الواحة الخضراء في رمال كالأُقيانوس الجافّ تُقحِمكَ المتالِفَ [1] وتَبُثُّ لك مَصايِدَ الموت في كل جهة ، ولا يخرجك منها الا أن يكون عمرك أوسعَ منها ؛ ومع ذلك فلا تخرج الا حياً نصفه موت او ميتاً نصفه حياة . ان عاشقها المسكين في كل ما يناله من حبها ليمشي الى الجَدْب بخطوات خُضْر تمدُّ عليه واحدة واحدة ؛ فههنا نَبْع يروي وهناك روضةٌ تتنفس وثَمَّ سَرْحَةٌ تفِيءُ بظلها ؛ وما شئت من

(١) تورطك في المهالك

متاع أحسنَ ما تنظر ومن رَوْح أجملَ ما تبتغي ومن نعمة أبدعَ ما تتحفَّى بك النعمة؛ ثم تنتهي من الواحة لانك كنت تندفع ولا تُحِس ويُسارُ بك ولا تدري؛ وتنتهي بعد الفضاء الجميل الاخضر الى ذلك الفضاء المخيف الابيض بياضَ عظام الموتى.... فضاءِ الصحراء المهلكة التي تقول لك أولَ ما تتلقاك: ليس من يُحس بك ههنا فحيث شئت فمت....

كانت والله قدَرًا مقدوراً لو علمتُ كيف تنتهي لاتقيتُ كيف بدأتْ، ولكني جئتها وأنا أقدِّر ان أراها كما هي وأدعها كما هي فاذا القدَر مخبوء فيها واذا هو قد طلع عليَّ في الحاظها واذا أنا أراها فلا أدعها. وكان طريقي اليها بين رؤيتها وتركها، أبدأ وأعود؛ فلما تخطيتُ أولها لم أر لها آخراً ولما بدأتُ عدلتْ بي الى الناحية التي كنتُ أجهلها فلم أدرِ كيف أعود

« * »

وهي شاعرة تغمرْ أفقاً واسعاً بأشعة خيالها، ولو ان

نجمة سألت الله ان يخلقها امرأة فتنزلَ على الشعراء بوحي السماء وخيال السماء وأسرار السماء لكانتْها . غير أنها لا تحسن عربيـة الكتابة الفُصْحى فاذا كتبت وقليلاً ما تكتب [١] اختَبَطَتْ في مثل البحر اللُّجيّ ففرَّت الى الساحل ورقصت هناك على رَشاش الموج . وهي تألمُ لذلك النقص فيها وما أظرفَ ما تراه في سببه إذ تقول : إن المصري والسوري ومن يشبههما قد بلغوا من ضعف القومية التاريخية بحيث يريد اكثرهم الكمال لشخصه لا لتاريخه ، ولنفسه لا لأمته ؛ فينسلُّ أحدهم من تاريخه ويغامر في آداب امة حية كالفرنسية والانجليزية ويستفرغ فيها كل همه فيدرك في خمس سنوات ما لا يأتيه به التاريخ المصري او السوري في خمسين سنة لو بقي في أمته وادعاً يترقب نُضج تاريخها . والشرقي اذا خرج من الشرق أحسَّ

---

(١) يستعمل هذا التركيب للندرة والعرب يستعملونه في نفي أصل الشيء وفي القرآن الكريم « فقليلاً ما يؤمنون » اي لا يؤمنون أصلا وهو اعجاز عجيب لمن يتأمله

أنه ترك وراءه بلاد القبور والمدافن والجثث المحنَّطة واستقبل بلاداً اصبحت الطبيعة فيها أسرعَ من اهلها في العمل للحياة والأحياء فهم يخدمون نواميس الكون لتخدمهم على الارض لا في السماء . وكانت اذا انتهت الى مثل هذا قلت لها انك لتتكلفين أن تجعلي للّانهاية حدوداً اربعة ... بل أربعةً ذات قياس ومساحة والا فابتلي اوربا بمثل ما بُلي الشرقُ منها اربعين سنة في جِد السياسة وهزلها فانك والله لا ترين منهم يومئذ الا الزنوج البيض ...

وكانت تقول ما أعجزني في أجناس الكتب إلا كتبُ اللغة العربية ؛ لقد أحضرتُ شيخاً يُدارِسُني كتاباً منها فكانا كتابين .... الذي أراه هو الذي أسمعه والذي اسمعه هو الذي أراه . ثم نغْرِقُ في الضحك وتقول في كلام ظريف كأنه يضحك ضحكا آخر : فأنا والله في حاجة لإتقان هذه اللغة الى عِمامة وعشرين سنة في الأزهر ...

« * »

قلت لك إنها شاعرة تملأ سماءً من السموات فتكاد لا ترى فيها من جهات الارض شيئاً[1] كأنما تركت المادة الانسانيةَ في أبويها وخرجت من ذلك الحطب والورق .... مخرجَ الزهرة الناعمة؛ بنيةً من اللون وجسماً من العطر ونسيجاً متماسكاً من الشعاع . خرجت عاطفةً مولودة تكبَر وتنمو لتبلغ في العواطف سنَّ شباب القلب؛ لا يتصل بروحها شيء الا نبت واخضرَّ ثم نوَّر وأزهر[2] كأن طبيعة الجمال خبأت في قلبها سرَّ الربيع . وهي الصافيةُ كرقة النسيم والناعمةُ كلمس الماء والضاحيةُ كطلعة الشمس؛ فان غضبت بدَّلت النسيمَ قيظاً والماء ظمأً والشمسَ الطالعة غيماً يلفُّ نهارَ الحب في ملاءة ليل أسود

ولا يستخرج عجبها شيء كما يعجبها الكلام الفنّ المشرقُ المضيُ بروح الشعر فهو حلاها وجواهرها وما

(١) كناية عن الطباع الحيوانية النفسية
(٢) نوَّر أخرج النوار

لِسوق حبها من دنانير غيرُ المعاني الذهبية . فانها لا تُبايعك صفقةَ يد بيد ولكن خفقةَ قلب على قلب

وما عسى أن أقول في فلسفتها واهتدائها الى موضع السر من الأشياء ونزولها وراء الُحجَّة الى الأعماق البعيدة التي تغوص الحجةُ فيها واستبانةِ المُشكِل باللَّمح وتقليب المعاني في أصابعها كأنها ملقنةٌ ما تحاوله ؛ وأخذِها في سبيل البرهان حين تجاهِل مأخذاً لا يُقامُ له ، وإظهار خيالها البديع في معانٍ لامعة كأنما تتدلَّى عليها الشمس . فلو كنا نقول بالرَّجعة (١) لقلتُ إن (أرسطو) قد رجع بفكره الجبار الى هذه الدنيا ليمارس حياةَ الانوثة ويتمَّ امرأةً كما تم من قبل رجلاً فينتظم كلَ الجنسين في نفسه

على أن فلسفتها هذه قد جعلت من بعض قُواها ذلك الجمود الذي تستعين به على الحب « جمودَ احساس الكُتُب . . . » حتى ملأت نفسي بمثل البحر مِلحاً ومرارة

(١) مذهب يقول به الهنود وغيرهم فيزعمون ان النفس ترجع الى الدنيا في جسد آخر لتستوفي كمالها

الجمال هِبةُ الله فليس لامراة فيه عمل . ولكن العجيب أن اكثر ما يكون من عمل المرأة انما يكون في إفساد هذه الموهبة كأن الجمال غريبٌ حتى عن صاحبته . تفسدها بالجهل اذا كانت جاهلة وتفسدها بالعلم اذا كانت عالمة وتفسدها بلا شيء ان كانت هي لا شيء ....

« * »

على أنها كانت تزعم أنها تبغض الفلسفة وأهلها وتقول ينبغي أن تتحول الفلسفة الى شعر كالتراب نُعالجه ليستويَ مخضَرًّا فاذا هو لم يُنْبِتْ فاردمْ به المستنقَعاتِ واملأ منه الحفَر وافتح فيه القبور ، والفلسفة وان كانت من ضرورات الحياة والأحياء ولكنها عند بعض الناس أعجبُ شيء وعند آخرين شيء عجيب وعند الشعراء لا شيء عجيب .... أعرفُ العلم والمنطق ولكن الطباع غير العقول فمن كان في سنّ العقل استطاع أن يحمل في فلك رأسه السمواتِ السبعَ والارضَ ومَن فيهنّ وذلك هو الفيلسوفُ في سَمْتِهِ وهيبته ووقاره كأن فيه مكتبةً

كبيرة أو كأن فيه ثِقَلاً خاصاً .... ؛ ومن كان في سنِّ الطبع فلا يعرف الا ما يميلُ اليه طبعه ، فان يكن هناك منطق وعلم فهما في كيفية إيجاد الميل في نفسه ثم في استخراج اللَّذَاذَةِ الروحية لنفسه من هذا الميل ثم في تهيئة الاستمتاع من هذه الروحانية بكل ما فيها لكل ما فيه

هذا هو رأيها ولكن لا تنسَ انه رأيُها الفلسفي .... وانه لن يكون لها رأياً الا اذا كان لها بَدِيًّا [١] فلسفةٌ قد جعلت من طباعها « جمودَ احساس الكتب » ؛ وههنا المصيبة فانها ان عَمِدَتْ الى غيظك اختبأت نفسُها في كتبها وأوراقها ورأت هذه الكتبَ والأوراقَ دنيا غير الدنيا لها أشخاصٌ غير الأشخاص . أما بين الكتب والاوراق فهي تحمل في رأسها السموات السبعَ والأرضَ فكيف تشعر بك اذا أنت وحدك وقعتَ من السموات السبع والارض .. ؟

ولكن هل أنتَ الا أنتَ وحدك ؟

---

(١) أي قبل ذلك أو كما يقول الناس (أولا)

الرسالة السابعة

نالتْ مني رسالتك يا عزيزي وما كنتَ ظالماً ولقد ظلمتَ . جاءتني سطورك جُمَلاً جملاً فانصبَّت على قلبي انصباباً فَغَشِيَتْه من حروفها بموج أسود كالظُلَم . لك اللهُ أن تحسبني هالكا وتقول إن روحي محمومة بتلك الفتاة واني في حاجة منك الى علاج مُر ؛ الى بضع نصائح من الكينا . . . .

فأما إني محموم بها فلا وما أبعدْتَ ؛ ولكن هي كانت أشبه بالهذَيان في الحب ، وان الدهر ليحمّ مراراً عدَّةً متى ركبته الأقدار الملتهبة فاذا هو حمَّ جاء من هذيانه نابغةٌ يهذي في رجل أو امرأة . وكان من علامة نبوغ تلك الفتاة أن فيها من برد الدنيا وسخونتها . . . . فيها والله برد شديد ويكفي أنه برد الفلسفة . . . .

قالوا جلّت الحقيقة أن تكون البشريةُ محلاً لِتَلقّيها ؛ وأقول جلَّت مرة أخرى أن تكون المرأة هي هذا الحل ؛

فما للمرأة الجميلة والفلسفة ؟ أللهمَّ لا تبتلِ بها من النساء الا كلَّ ذات وجه غَضِن[1] لا يضره ولا يضر أحداً ان تزيد فيه كُرْبَةً أو عُقدةً أو مسئلة حسابية . . . .

ولكن ما أجمل الحقيقةَ تُرسل أشعتَها وألوانَها في قلب الجميلة فتَمْتَهِدُ لها فيه أرضاً من الشعاع ثم تهبط من السماء الكبرى الى هـذه السماء الصغرى جمالاً في جمال وحقيقة على حقيقة وشعراً على شعر ومعنى يُوحَى به الى من هي تفسير له . تلك حقيقة الجمال الذي لا يُفهَم الا بمثال عليه من امرأة ؛ وان من النساء تفسيراً بديعاً لهذه الحقيقة ، ومنهن تفسير ناقص ، وبعضهن مُغالطةٌ في التفسير ، وبعضهن مسخٌ ، وبعضهن كالتضريب والشطب لا يفسر شيئاً ولا يصحح شيئاً ولكن يمحو ويطمس . . . .

« * »

سآتيك بها الآن من جهة الشعر وقد وصلتُ

(١) الذي فيه تكسر وتجعد من الهم والكرب و . . . وانقبح أيضاً . . . .

جناحها بجَناحي بعد مقدمها الى مصر بايام وخرجنا مُتَنَدِّيَين[١] ذاتَ صباح في طريق تبعثرتْ فيه الشمسُ على الندى وعلينا . كانت هي صبحاً في ذلك الصبح وقد وافت كعادتها متكسرةً وللفتور مَسٌّ فيها ؛ فتورها النسائي[٢] البديع الذي يُنبئك في لطفٍ أيِّ لطف أن عواطفها تُبعدك عنها ولكن بشرط أنلاً تبتعد؛ فتور في الجسم تظهره الأُنوثة التي نراها لنطَّلع منه على سر الأُنوثة التي لا نراها . وفتور في اللحظات تدل به على أن في قلبها منك شيئاً تحب أن لا يظهر لك وتحب كذلك أن لا يخفى عليك ....

ومشينا بين الجمال المنظور وبين الجمال المعقول وهي تجمعها في شخصها ومعانيها على حين أن الطبيعة لا تكاد تُرضيك من هذه الجهة الا اذا عرضت لك ألف شيء

---

(١) متنزهين غبَّ الندى وهي كلمة استعملناها قياساً ولا يوجد في كتب اللغة (٢) يظن بعضهم ان النسائي غلط وصوابه النسوي وكلاهما صحيح والاولى أفصح احياناً

جميل . ثم فِئْنا الى روضة على شاطىء النيل يُسافر النظر في أرجائها وتَتَمَوَّجُ للعين كأنها بحر أخضر تهتزّ عليه هنا وهناك أمواجٌ ملوَّنة من الزهر

وقلتُ فلأكنْ آدمَ هذه الجنة اليوم . قالت ثم تخرج منها كما خرج .... قلت فان الخروج لا يَأْزِفُ الا عند غروب الشمس « كقانون المجلس البلدي » .... فضحكت وحضرتْها النفسُ الثالثة[1] ثم مدت عينيها الذابلتين في شواطىء ذلك البحر الأخضر وقالت ألا تظن يا آدم الصغير أن إدراك الجمال الطبيعي في الأرض هو بقيةٌ فينا من نفسية آدم الكبير لَدُنْ كان في السماء وقد ورثناها عنه ؟ قلت لا أظن ظنًّا بل أنا مُسْتَيْقِن فاننا طُردنا من الجنة ولكنا استَرَقْنا منها قدرَ ما وسع خيالُنا ؛ فإدراك الجمال في أي أشكاله وبأي طرُقه انما هو متاعُ الروح الانسانية على طريقتها الأولى في عهدها الاول . إن هذا الجمال لم يُخلق الا للحِسِّ والتخيل فهو كلام بين

(١) مرَّ تفسير ذلك في الرسالة الرابعة

السماء وباطن الانسان. قالت وأنت الساعةَ تكلمك السماء؟ قلت وتقول لي . . . . قالت يا وَيْحي ماذا تقول لك السماء؟ قلت فانها تقول ما لك منصرفاً عني بِمَلَكٍ من ملائكتي ونسيتَ حتى الشمس فلم تنظر اليها . قالت وجوابك؟ قلت جوابي هو أن بعض الاسرار الالهية يُبْحَثُ في العلم عنها وبعضها يكون من الجلال والاشراق والسموّ بحيث يُبحث فيها هي عن العلم؛ فالسر الكامن في هاتين العينين وفي هذا التكوين وفي هذه الطلعة هو الذي أبحث فيه عن علم قلبي . قالت أنت شاعر يُمَدّ قلبك شيئاً عجيباً وكثيراً ما أحاول الابتعاد عن الفاظك . قلت ولِمَهْ؟ أيكون فيها أحيانا صوتُ شفة تمسّكِ؟ فسكتت وجعلت تنكتُ الأرض . ومضيتُ أقول : ان الجمل يَسْتَرْوِحُ الماء[1] مَسِيرةَ ميل وان بعض الحيوان يحمل اليه الهواء رائحة ما يخشاه او يحبه فكيف لا تحمل اليَّ الفاظك عطر خديك وشفتيك فتستحيل الفاظي كلها قُبُلَات؟ إن السائل

(١) يشم رائحته لخاصة فيه اذ خلق للظمأ

المسكين حين يدعو لمن يُحسن اليه يقبل يده بالفاظ الدعاء لان كلماته لا ترتفع الى السماء الا بعد ان تمسّ هـذه اليدَ الـكريمة المحسنة من كل لفظةٍ دعاءٍ بقُبلة شكر ؛ والمحبُّ حين ينظر في وجه من يهوى نظَرات كالالفاظ وحين يتكلم بالفاظ كالنظرات . . . وهنا لمست كتفي وانتهضت وقد أشارت الى زهرة حمراء كوجه المستحي ثم مشت اليها فاقتطفتْها ورجعت ؛ فعلمت ان الكلام كان سقطةً مني فتداركتهُ وأردت أن أقلبه عن جهته ولكنها تنهدت ثم قالت ما أحببتك شخصاً بل شعراً ولا انساناً بل فكراً ، ولولا اسباب القَدَر التي باعدت ذاتَ بيننا . . واخذ كلامها يرقُّ ثم يرقّ حتى خرج من معانيه كلام لا يتَلقّى الا بالشفاه ، وخُيِّل اليَّ أن نسيم الروضة يرتمي عليها ليتخطَّف تنهدها فجعلتُ اتخطف هذا النسيم وكأني لا أتنفسه بل أشربه شُرْباً

« * »

في تلك الساعة ذكرت هي الشعر وقالت انه يُخرجنا

الآن من حدود العمر الارضي فان في هذا العمر ساعاتٍ لا تحسَبُ منه إما لانها أبدعُ واجملُ فلا يُلائمها ، واما لانهـا أقبحُ واسخف فلا تلائمه ؛ أفتُراها أقبح وأسخف . . . ؟ قلت يا شاعرتي العزيزة إن اللغة أيضاً تخرج من حدود الأرض أحياناً فهي في مثل هذه الساعة في مثل هذه الروضة في مثل هذه الجميلة لا تُؤَدِّي الا معنى الجمال والحب . اما الأقبح والأسخف فلا يدخلان هنا الا بعد أن نخرج نحن ويدخل غيرنا . . . .

قالت يا لك من « عقل جميل » كما يُسمِّي الفرنسيون ظرفاءهم . ثم تناولت من المَثْبَنَة (١) في يدها أُنبوب قلمها الرصاصي المصنوع من الذهب وأخرجت دفتراً صغيراً . وغمست سنَّ القلم في ثناياها وفكّرت لحظة ثم غمسته ثانيةً ثم كتبت في طرّة الصفحة هـذه الكلمة « الشعر » . ونظرت اليَّ باسمة وقالت خذ هذا القلم واكتب كلمة صغيرة في الشعر لأنقلها الى الفرنسية في مقالة لي....

---

(١) المثبنة كيس تحمله النساء تضع فيه بعض اداة الزينة

آه لو ان الكهرباء اجتذبت القلم من يدها ما كانت أسرع مني في اختطافه . وجعلتُ أغمسه في شفتيَّ مرةً بعد مرة بعد مرة ولا اكتب شيئاً وهي تضحك وتقول ما لك لا تكتب ؟ فاقول هكذا اعتدت في المدرسة وكنت بليداً . . . .

ثم كتبتُ ولكن بعد أن خالط فمي طعمُ الرصاص من كثرة ما غمستُ القلم . . . . وكتبتُ وانا اشعر بأنفاسها وعطرها ومعاني لحظها يتحولْنَ في نفسي الى كلمات :

« * »

ما هي العاطفة المُهْتَاجة في نفس الانسان اهتياجاً لا يُريه الحياةَ أبداً الا اكبرَ او أصغرَ مما هي ؟

ما هو المعنى الساحر الذي يأتي من القلب والفكر معاً ثم لا يأتي الا ليُحْدِث شيئاً من الخلق في هذه الطبيعة ؟

ما هو ذلك الأثر الالهي الكامن في بعض النفوس مُستكِنّاً يتوثّب بها ويُحاول دائماً ان يعلو الى السماء لانه غريب في الارض ؟

وما هو الشعر ؟

هذه الاسئلة الأربعة يختلفُ بعضُها عن بعض وينزع كل منها الى مَنْزَع ولا جوابَ عليها بالتعيين والتحديد في عالَم الحِسّ لان مَرَدَّها الى النفس والنفسُ تعرف ولا تنطق ؛ وشعورها إدراك مخبوء فيها وهي نفسُها مخبوءة عنا . ولكن العجيب أن كل سؤال من هذه الأربعة هو جواب للثلاثة الباقيات ؛ فالعاطفة هي ذلك المعنى وهي ذلك الاثر وهي الشعر . والشعر هو العاطفة بعينها وهو الاثر وهو المعنى ؛ وهلمّ جرا

« * »

سُبْحانَكَ يا من لا يقال لغيره سبحانك . خلقتَ الانسان سؤالاً عن نفسه وخلقتَ نفسه سؤالاً عنه وخلقتَ الاثنين سؤالاً عنك . وما دام هذا الانسان لا يُحيط به الا المجهولُ فلا يحيط به من كل جهة الا سؤالٌ من الاسئلة ؛ ولا عجبَ إذن ان يكون له من بعض المسائل جوابٌ عن بعضها

هذه هي الطريقة الالهية في دقائق الامور، تُجيب الانسان الضعيفَ عن سؤال بسؤال آخر

ولقد اكثروا في تعريف الشعر وجاؤا فيه بكل ألوان القول. ولكن كثرة الأجوبة جعلته كأنه لا جواب عليه. بالغوا في تقريبه الى الروح فأجرَوْا في حدّه كلَّ عناصر الجمال والفضيلة ودلوا بالخيال على حقيقته إذ رأوا انه لا يدل على حقيقته الا الروحُ وحدها وهي غامضة فهو غامض وتفسيره في مئة تفسير

الشعر وراء النفس والنفس وراء الطبيعة والطبيعة من ورائها الغيب؛ فلو جمع ما قيل في الشعر لرأيتَه يصلح في اكثر معانيه أن يقال في النفس ثم لرأيتَه مفهوماً من جهتنا وغيرَ مفهوم من جهته. وما الشعر الا أول المعاني المُبْهمَةِ والدرجةُ الاولى من سُلّم السماء الذاهبةِ الى عرش الله؛ وهو كذلك أ ...لُ ما في الانسان من الانسانية

في هذا الكون مادة عامة يسبح الكونُ فيها وتنبعث من قوة الله وارادته وهي دائمةُ التركيب والتحليل إيجاداً

وفناءً؛ وما ارى الشعر الا تاثير هذه المـادة في بعض النفوس العالية الكبيرة التي تصلح أن يسبح خيـال الكون فيها

بهذه المادة تمتزج نفسُ الشاعر بكل ما تراه؛ ومن هذا الامتزاج يتكون الشعر. فاذا أردتَ أن تتحقَّق ذلك فانظر الى نفس الشاعر العظيم تمتزج بالجمال الرائع في نفس الجميلة، وبالحب في نفس الحبيبة، وبالطبيعة في المعنى الطبيعي؛ وانظر اليها حين تتَّصل بأسباب اللذات والآلام؛ حين تُثيرها اللحظةُ والابتسامة، ويَهيجها الصدُّ والاعراض، ويحزنها المحزن ويَسرها السار؛ حين تخترق بالفكر حجابَ هذه الانسانية وتَثِبُ بالعاطفة فوق الطِبّاق العليا وتستمدُّ من الشّعلة الأزلية لوناً من ذلك الضِّرام الذي اشتعل به في أصل الخلقة كلُّ كوكب يتلهَّب

« * »

ما أشقى نفسَ الشاعر؛ فانها لسموِّها تجهل ما هي من هذا العالَم فلا تزال تمتزج في أرضنا بكل ما يحزنها ويسرها

لتعرف ما هي ؛ ولن يكون الشعر العالي أبداً الا التقاء بين نفس سامية وحقيقة سامية . ومن ثَمَّ كان الشاعر العظيم يُحب ويُبغض ويضحك ويبكي ويرضى ويغضب ؛ ولا يُحسُّ من كل ذلك وما إليه الا أن السماء تحكم من داخله على الارض

وعلةُ شقائه هي نفسُها علةُ سروره بشعره وان نَثرَ هذا الشعر من عينيه بكاءً ودموعاً ، وان انفَجَر به أحزاناً وآلاماً قاتلة

كل النوابغ لا يُرضيهم الا أن يرتفعوا فان من كان له جَنَاحان للطيران لا يُسر الا اذا طار ؛ وما جناحا الطائر الا كتابان من الله يملِّكه في احدهما على الشرق وفي الآخر على الغرب ؛ بَيْدَ أن الشاعر لا يُرضيه أن يرتفع عن الارض وحدها فان خياله لا يقع الا ساجداً عند عرش الله ؛ وذلك سبب آخر من أسباب شقائه في الدنيا ، فأيما شرٌ مس كبرياء روحه وأمسك من جناحيها

رأيتَ أثره في نفسه الرقيقة وكأنما صدمه الصدمةَ ترمي به من فوق السماء الى الارض في سقطة واحدة

يا للعجائب ان سرور الشاعر المُلهَمِ سرورُ نفسه وحدها ولكن حزنَه حزنُ العالَم كله

« * »

قيل في احد القدّيسين إنهما وجد السبيلَ الى الكمال الانساني الأعلى ولا استطاع ان يكمل حتى كانت له نفسُ شاعر عظيم في جسم فقير بائس محزون ، فضَربَ اللهُ بتلك النفس على هـذا الجسم وبهذا الجسم على تلك النفس واستضاء منهما القمرُ الانساني في ليـل حالكٍ من سواد أحزانه وهمومه

فواهاً لك يا شعر الشعراء ؛ أنتَ النقصُ كلُه مع لذاتِ الدنيا وأنتَ الكمالُ كله مع آلامها . « انتهى »

« * »

واستوعبتْ هذه الكلمة يا عزيزي في دفترها الجميل

عشر صفَحات . فعدَّتها واحدةً واحدة ونظرت اليَّ أظرفَ ما رأيتها ثم شكرتني وقالت : آه ماذا قالت ؟ لقد كنتُ أكتب وهي تُديِر فكرها في اختراع بديع لمكافأتي

فكِّر أنت أيها الصديق . أحسبك تسمع الآن صوتَ النَّقْد اللؤلؤيّ الثمين ؛ صوت عشر قُبُلات

كلاَّ كلاَّ لقد كذب عليك الحسن وكذب عليك القمر . قالت . . . . لم يبق الا عشر دقائق . . . .
وانفَتَلَتْ ضاحكةً ونهضت لا تَلْوِي

« * »

ومِلْءُ شُعَاعِ هـذا السيفِ قتلٌ
وَمِلءُ جمالِ هـذا الحسن ذُلُّ
ولولا سَطْوةُ الأقدارِ فيما
بين الناسِ كان الناسُ مَلُّوا

فانْ كَثُرُوا يقلُّوا كي يَعودوا
كِثاراً ؛ ثم ان كَثُرُوا يَقِلّوا
مَسَائِلُ ما لها حَلٌّ ولكن
اذا نُسِيَتْ ففي النسيان حَلُّ

وسأنسى يا عزيزي سأنسى



الرسالة الثامنة

وادي هواكِ كأن مَطْلَعَ شمسهِ
يُلقِي على يأسِي شُعاعَ أماني
وكأن هذا البدرَ في ظَلْمَائِه
يَدُ راحمٍ مَسَحت على أحزاني
وكأن أنجُمَ أُفقِهِ في ليلها
ذِكْرى وعودِكِ لُحْنَ في نِسياني
يا ظبيةَ الوادي الذي نَبَتَ الهوى
بِثَراهُ بين الزهر والرَّيحانِ
واديكِ من طول التدلل قد بدا
شَبَهُ القُدود به على الأغصانِ
وكأنَّ طِيبَ نسيمِه قد مَسَّ من
شفتيكِ موضعَ قُبْلةٍ وأتاني
هو جَنَّةٌ كلُّ النعيم بأرضها
الا رضاكِ ؛ فذاكَ من نيراني

دانٍ وما يدنو ؛ بعيدٌ ما نأى
يا شَدَّ ما يُضْنِي البعيدُ الداني

« * »

أنا مَن عَلِمْتِ فَتًى كأن مهَزَّهُ
في الرَّوْع مَسْنُونُ الغِرَارِ يمانِي
كلُّ الحوادثِ حُمْرُهُنَّ وسُودُها
في صَفْحة الأيامِ من ألواني
نفسي من المَلَإِ العُلَى وسَجِيَّتي
تأبَى عليَّ مذلَّةَ الانسان
ولقد أُراعُ اذا لحاظُكِ لامَسَتْ
قلبي كأني في هواكِ اثنانِ

« * »

ألحسنُ ألوانٌ يُمازِجُ بعضُها
بعضاً لتصوير الهوى الفتَّان
وأرى الجوَى والسحرَ والايمانَ قد
مُزِجَتْ فمنها هـذه العينانِ

وآه لو رأيت عينيها أيها الصديق تَغْزِلان غزل السحر خيوطاً خيوطاً تَلْتَمِعُ واحداً من شعاع الحرير في واحد من شعاع الشمس . آه لو يَتَبيَّن لك مَكْتومُها في بعض نظَراتها الساجية الطويلة التي تَغفُل فيها عن كل حذر وتُرسل فيها كل خواطر الحب. وتمدُّها اليك وكأنها تقول خذ هذه النظرة وانظرني أنت بها اتطَّلع على ما في قلبي . ثم تُرخيها بفتور انيِّ كأنما تُصارحك أنها سَئِمَتْ مقاومة فكرها وتريد ان تميل الى صدرك ولو بلحظة من عينيها ... كل شيء فيها من نتائج فكرها الا تلك النظرات فانها وحدها نتائج قلبها

تذكر عليَّ أيها العزيز وصفي اياها بالفلسفة ونعتها بالذكاء النادر والشِّعر العجيب وتقول « ان هذا من سحرها فيك وانها لو بلغت مبلغاً مما وصفتَ أو دونه لتوكَّدتْ بينك وبينها علائقُ من تحت النفس ومن فوق القلب ولكنك تصفها بما لا يَتصوَّر في وهم ولا يَهْجِسُ في ظن الا وهمَكَ انت وظنَّك انت لانك انت .... »

فوالله ماكان أمرُها على ما رَجَمْتَ [١] وانها لأَ بلغ ذاتِ لسانٍ وأبرعُ ذاتِ فكر وأروعُ ذاتِ نفس ؛ ولو كنا سِلِيلَيْ أُبوة [٢] ما شهدتُ لها بأكثرَ من هـذا حرفاً ، ولوكان دمي من أعدائها ما نقصتُها من هذا حرفاً؛ وعلِم الله ما أُبغِضُ فيها الا هذه التي أشهدُ لهـا . . . . ولو أن الله مكنَّها من لغـة كتابه الكريم لَغُصَّ منها في هذا الشرق العربي كلُّ كاتب وكاتبة غُصةً لا تُساغ ولا تتنفَّس

واني لأكتب اليك رسائلي هذه والقلبُ يَنفُضُ في أضعافها [٣] ما لو قرأته لوَرَدَ عليك من أضواء المعاني في جمالها وحبها وأوصافها ما يملأُ نهاراً بين صبحه ومغربه يبدأه بشمس ويختمه بقمر

« * »

لقد كنتُ اذا جاش بي حبُّها وثار منه ثائره فحاولت

---

(١) أي ظننت بالغيب (٢) أخوين من أب واحد
(٣) بين سطورها وحواشيها

أن تَرْبِطَ على قلبي وتُثَبِّتَ هذا الفؤاد القَلِقَ ؛ جاءت بكلام نَضِرٍ تَنبت منه السلوةُ في الحب القفر الذي لا يُنْبِتُ شيئاً ؛ وجعلت الملائكة تنزل في العشّ الذي بناه الشيطان لنفسه في القلب وعَشَّشَ فيه ؛ فلو أن كل حبيبة مثلها وكل محب مثلي لكان الحب تغييراً في الإنسانية ولما احتاج الناس الى قوانين وملوك ولكن الى حبيبات والى حب .

إن الرذيلة واحدة ويتعدّد أهلها فمهما كَثُروا ألوفاً وملايين فهم واحد في المعنى إذ يتلو كل منهم تِلْوَ صاحبه ويَقْتاسُ به فكأنهم صُوَرٌ متكررة لانهم في الرتبة المنحطة كالنبات تُخْرِجُ الحبةُ منه الف حبة مثلها لا تمتاز واحدةٌ من واحدة ؛ ولكن كل من قام بفضيلة فهو فضيلةٌ قائمة بنفسها ، فمهما قلّ الفضلاء فهم كثيرون لانهم في الرتبة العُليا ولانهم وحدهم الناس . فلو صح الحبُّ وأداوه أهلُه وصبروا على ما يَحِزُّ في الصدور منه وتَوَجَّرُوا العلاجَ المُرَّ (١) الى ساعة الشفاء لكان كل متحابَّيْن عالماً قائماً

(١) اساغوا يقال أوجرته الدواء اذا اكرهته على شربه

من اثنين لإنشاء عالَم لا يُمَدُّ من صفات الفضائل وأنواعها .

كانت تقول لي ، ان القلوب الضعيفة هي التي تصدأ في فكرة واحدة تُلِحُّ عليها حتى تَتَأَّ كل صَدَاًّ ثم تتفتَّت ؛ فاذا حَدَثَتْ عليها الحادثةُ انكسرتْ ولم تَقُمْ لها ، وبقيتْ زمناً طويلاً في الهموم حتى تتعب الحوادث والأقدار المختلفة في أيام تتصرَّم بعد أيام الى أن تجمع من حُطام القلب قلباً متحطماً ؛

ولكن القلوبَ القويةَ الصارمةَ ذاتَ الصدور الجريئة الواسعة تكوِّنها القُوَى المختلفة من العمل والفكر وعدم المبالاة على هيئة تجعلها مَرِنةً في صلابة فهي تلتوي ولا تنكسر ، وما أسرعَ ما ترجع كما كانت اذا لوتْها الخيبة أو نَجَمَتْ لها قاصمةٌ من الحوادث التي هي مَطَارِقُ القلوب لا تضربُ الا عليها ولا تحطم الا فيها

أقول لك « عدم المبالاة » فافهم عني فاني أريد أن تحفظَ هذه الكلمة وتَعِيَهَا من بَوَادي هذا الحب الى تَواليه

الى أعقابه (١) . ان عدم المبالاة يكون في بعض الاحيان وفي بعض الأمور هو كلُّ ما تكلفنا به الطاقةُ البشرية من المبالاة ...

ثم تقول : انما أنتَ مني في باب من أبواب الفكر فاياك لا تتسلطْ عليك حاسة من حواسك فان لهذه الحواس ضَراوةَ السباع وكَلَبَها (٢) ؛ والعاطفة تجعل الانسان أشكلَ بالملائكة والحاسة تجعله أقربَ للشياطين ؛ والحب كَالخمر كلاهما نَشْوَةٌ وكلاهما دواء فلا تُجاوزْ حدَّ الطب فيما ترى ولا حدَّ الشعر فيما تفهم ، والا كنتَ كالمُدْمِن لا يكفيه الا مِلْءُ جوفه حرَّةً وظماً ومرضاً وجنوناً . واذا هو ملأه توهَّم أنه يَسَعُ بحراً من الخمر ولا يزال يطمع في الانتشاء ولا يزال يُسْرِف على نفسه حتى يذهب عقله وينكفيءَ وما به قدرةٌ على شيء ولا على أن يتوهم شيئاً . اجعل الحبَّ تَمَلُّلاً ودع مَكارِهَه في ناحية . وميِّز بين ما يجب أن يبقى خَيالاً وما يجوز أن يكون واقعاً

(١) من أوله الى تاليه الى آخره (٢) شدة الحيوانية فيها

فان أردت أن تُخرج من كل صورة في خيالك صورةً من الواقع أشقيتَ نفسك واستفرغتَ كلَّ همك وقواك في باطل وعبث ليس مثلهما باطلٌ ولا عبث. دع المعاني في ألفاظها إن لم تؤاتك الاسبابُ وعِللُ الأقدار على خلقها أعمالاً فانك إن داريتها ولم تجئك بالمسرَّة التي تريدها جاءتك بغيرها وخرج منها على العِلاَّت شيء ما يكون منه أمرٌ ما .... وكن في قوة عواطفك وإحكامها وضبطها كالمصارع الجبَّار الذي لا يُوضَعُ جنبُه[1] فانه كما تعلم يُعرَكُ بكل جهة من جهاته أنواعا من أقوى القوَّة مُمثَّلة في أجسام من أعنف العُنف؛ فصدرُهُ الذي لا يُعطَفُ وظهره الذي لا يُضغَط وأطرافُه التي لا تَهِنُ ولا تَكِلّ ، وكل لوح فيه انما هو رجل تامُّ الخِلقة وثيقُ التركيب لان كل ما فيه قوة بالغة في قوة بالغة ، ولأن الرجل لم يجتمع كذلك الا من المكاره والغمَرات التي خاضها وثبت عليها حتى كأنما خرج بها من وزن رجل الى وزن جبل

(١) لا يغلب فيرمى على الارض

ثم تقول : دع الدماغ يحلم نائماً أو مُنْتَبِهاً ، ولكن متى انعَدَلَ الليلُ راجعاً الى ما بِهِ واستدار النصفُ المضيء من الكرة فلا تجعل حُلمَ الرأس الذي هو أداةُ الخيال سبباً في عذاب الحواس التي هي أدواتُ الواقع . واقطع من نفسك أسباب المَطْمَعَة الخياليه تجدْ كل شيء قارًّا في موضعه لا ينحرف ولا يضطرب ولا يتململ ؛ وتذهب أحلامُ النوم في النوم وتأتي حقائق اليَقَظة مع اليقظة وكنا في انتظارها فلا يَفْجأنا منها شيء . انك ربما تأتي في أحلامك مالا يُسَوِّغهُ عذر ، وترى وتسمع ما لا وجود له ، وتجد مَنْزَعاً من أمور ليس فيها مَنْزع ، وتَمُوجُ بك العوالمُ كلها وأنت ساكن في نومك مُسْتَثْقِلٌ حتى على الحركة الضعيفة . وحسبُكَ بعضُ هذا في الدلالة على أن الدماغ لا يَسْكُنُ الى نَزَوَاته عاقل لانه مصنعُ المستحيلات كما هو مصنع الممكنات

« * »

آه يا عزيزي لو رأيت كيف تختلط المعاني بأنفاس

شفتيها وكيف تُقبِل عليك ألفاظها وفيها من اللطف واللين والرفة وألوان النفس أكثر مما في خدي عذراء سافرةٍ بين عشاقها لا يفارقها الحياء من الالحاظ ولا تفارقها الألحاظ . إنها لتُميتُ داءَ الصدر من الوساوس والشهوات اذا هي كلمتك بتلك اللغة القلبية التي تمحق حواسك مَحْقاً ان كنتَ رجلاً كريم النفس ؛ واذا هي استسلمتْ بكلماتها اليك ولكن في حِماية ضميرك . تُسمعك صوتَ ضعفها ملتجئاً الى قوتك وكأنها تقول لك إن نصفَ كلامي هو هذا والنصف الآخر هو ثقتي بشرفك

في المرأة الجميلة أشياء كثيرة تقتل الرجل قتلاً وتخلِجهُ عن كل ما في دنياه كما تَخلِجهُ المَنيةُ عن الدنيا ؛ وليس فيها شيء واحد ينقذه منها اذا أحبها ، بل تأتيه الفِتنةُ من كل ما يُعلِنُ وما يُضمِر ومن كل ما يَرى وما يسمع ومن كل ما يُريد وما لا يريد ؛ وتأتيه كالريح لو جَهَدَ جُهْدَه ما أمسك من مَجْراها ولا أرسل . ولكن في الرجل شيئاً يُنقذ المرأة منه وإن هلك بحبها وإن هدمتْ عيناها

من حَافَاته وجوانبه فيه الرُّجُولة اذا كان شهماً، وفيه الضمير اذا كان شريفاً، وفيه الدمُ اذا كان كريماً. فوالذي نفسي بيده لا تعوذُ المرأةُ بشيء من ذلك ساعةَ تُجَنُّ عواطفه وَيَنْفِرُ طائر حِلمه من صدره إلا عاذَتْ والله بمَعاذٍ يحميها ويَعْصِمُها ويَمدُّ على طهارتها جناحَ مَلك من الملائكة

الرجولةُ والضميرُ والدمُ الكريم: ثلاثة اذا اجتمعن في عاشق هلك بثلاث: بتسليط الحبيبة عليه وهو الهلاكُ الأصغر؛ ثم فِتْنَتِه بها فتنةً لا تَهدأ وهو الهلاكُ الأوسط؛ ثم انقاذِها منه وهو الهلاكُ الأكبر ... ألاَ إن شرفَ الهلاك خير من نذالة الحياة



الرسالة التاسعة

﴿ القلب الكريم المتألم ﴾

إن رسائلي اليك أيها العزيز لَتَنْتَزِعُ مني دواعيَ هذا الصدر المحزون (١) فانها كفيضَةِ الملآن (٢) ولكني أراها لا تذهبُ بهمٍّ أستريح اليه ، الا رجعت بهمّ ألتوي عليه ؛ وقد يكون بعضُ العزاء عن المصيبة تفنُّناً من المصيبة نفسها ؛ كدمعة من يرثي لك من النكبة يجيئكَ بها تعزيةً ولها على نفسك الأبيَّة غمزٌ مؤلم قد يكون أشدَّ من ابتسامة العدو الذي يشمت بك

أكتب اليك في أحزاني اضطراراً أيها الصديق فانت الجسم الثاني لروحي وقد هدم ذلك الحب صورتي الأولى فسكنتُ منك لصورتي الثانية . وما أعجب رحمةَ الله اذ تحيلُ كل همٍّ في هذا الانسان الضعيف الى قوة

---

(١) أسباب الضجر ونحوها (٢) الملآن يفيض فيخف ما به

تبعثه على التماس العطف والرقة من كل النواحي الانسانية ؛ كأن في النفس بجانب كل شيطان مَلَكاً ان لم يستطع تحويلَ الشر الى خير أخرج منه نَزْعَةً من نَزَعات الخير

واهاً لهذا القلب الذي أحمله فانما هو عقلُ فيلسوف خُلق على شكل القلوب ؛ فهو يأتيني من كل شيء بشيء غيره حتى تلك التي أُحبها جاءني منها بهذه التي أُبغضُها وبقي مع ذلك يتفلسفُ في حبها . . . ولكنه قلبٌ جليل سامي النَزْعة قارٌّ كالصبر مجتمعٌ كالايمان ؛ يقول لكل حاسة أو عاطفة أرادت أن تتهَضَّم فيَّ أو تستَذلَّ : ياسَرْحَةَ الوادي لا يزال هناك جبلٌ لا ينحني لعاصفتك

قلب لا أدري أوهبني الله له أم وهبه لي فهوَ مثارُ الألَم ومَهبِط الرحمة جميعاً . ولقد ورد في أَثَر من الآثار إن العبد اذا دعا لانسان قد اشتدَّ بلاؤُه فقال اللهم ارحمه ؛ يقول الله كيف أرحمُه من شيء به أرحمُه . وكيف يرحمني الله من هذا القلب وقد رحمني به في ذات نفسي ؟

إنما علة البلاء من ناحيتنا نحن،ثم من هذه الجهة الفانية

جهةِ الجسم الذي يستيقن انه يعيش ليموت وهو مع ذلك يقبل المقدّمات وحدها ويحاول دائماً أن يَفرّ من نتائجها كأن النتيجة ليست في المقدّمة والآخرة ليست في الاولى؛ أما تلك الناحية الخالدة ناحية الروح فهي كما قيل في شجرة الصندل: تعطّر الفأس التي تضربها وتحطمُ فيها

هذا القلب هو سر الجمال الانساني لأن فيه بَرَكَةَ النفس وزينتها وسَكَنَها. فالبركة تنبت من الخُلق الطيب والزينة تخرج من الفكر الجميل والسكَن يثبتُ بالايمان واليقين؛ وما جمالُ النفس الانسانية الا خُلُق وفكرة وفضيلة مُؤمِنَة

« * »

ما زلتُ منذ وَعيتُ كأنما أُفرِغُ في قلبي هذا قلوبَ الناس بتوجُّعي لهم وحَنَاني عليهم، وكأنما أعيش في هذه الارض عيش من وضع رِجْلاً في الدنيا ورجلاً في الآخرة؛ أحفظ الله في خلقه لانى أحفظ في نفسي الرحمة لهم وان كان فيهم من يُشبه في التَّلَفُّفِ على دَوَاهِيهِ باباً مقفلا

على مَغارَة مظلمة في ليل دامس . . وأتّقى طائلةَ قلوبهم[١] وألسنهم على تفضيلهم قصاراً أو طوالاً كما خرجوا من شقَّي المِقَصّ المجتمعين من الليل والنهار تحت مِسمار الشمس ؛ وأُصْدِرُهم من نفسي مَصْدَراً واحداً لأنى أعلم أن ميزان الله الذي يَشِيلُ ويَرْجَحُ بالخفيف والثقيل ليس في يدي فلا استخفُّ ولا أستثقل ، وأعرفُ أن الفضيلة ليست شيئاً في نفسها وانما هي بالاعتبار فلا أدري ان كانت عند الله في فلان الذي يُحَقِّر الناسَ أو فلان الذي يحقِّره الناس . وليس من طبعي أن اتصفَّح على الخلْق[٢] فان من وضع نفسه هذا الموضع هلك بالناس ولا يَحْيَوْن به وتَعقَّدوا في صدره كما يَتعقَّد الماء العَذْبُ بالغُصَص المؤلمة، ورَموْه بذنوبهم من حيثُ لا يُمَحِّصُ عنهم شيئاً[٣] . وقد خلقهم من عَلِمَهُمْ كيف يجيئون وكيف يذهبون ؛ وما تَقْذِفُ بطونُ الامهات في هـذه الارض الا تواريخَ كُتِبَتْ في

(١) كناية عن الحسد ونحوه (٢) تصفح على الناس التمس عيوبهم وفتش عنها (٣) محص الذنب بالتوبة محاه

الازل كما قدَّر الله ولما قضاه فمن استقامَ فعلى الخطّ الذي
أُمتدَّ له ومن زَاغَ فللدائرة التي انحرف به محيطُها المـائل
من طَرَفيه إن سَفلَ وإن علا

لقد أقمتُ من نفسي لهـذا الخَلْق جبَلاً وان هذا
الجبل ليتدحرجُ عليه الصخر الصلَّدُ ويلصَق به الحصى
المسنونُ وينغرزُ فيه الشوكُ الدامي وتنبتُ منه الفروعُ
المُرَّة وترسـو بين أطباقه العُروقُ الضاربة ؛ ولـكنه على
ذلك جبَلٌ وهو بذلك أتم رَوعةً ورهبة . ولـكل شيء مما
عددتُ معنى في نفسه . ولكلها مجتمعةً وحدها معنى آخر
ولجميعها مُبَعْثَرَةً يتخطَّى المعنيَيْن في الجبل معنى ثالث

فما أضيقُ بالناس ولا أتبرَّمُ (١) ولى ابداً مع الضعفاء
والأقوياء سَفحٌ ظليل مُخضَرٌ وقِمَّةٌ عالية (٢) متَمرِّدة ؛
وانى على ما وصفتُ لأرى في أعماق هـذا الطَّوْد الراسي
بركانا يتزلزلُ به كلما اضطرمَ جاحمُهُ . ذائبا في الاغوار

(١) اتضجر وبرم بالشيء (بكسر الراء) وتبرم (٢) السفح
من معانيه اسفل الجبل

البعيدة تُمسِكُهُ الارض امساك العزيمة وَتَشُدُّ عليه شدَّةَ الصبر على أنه لَجِجٌ من النار ؛ فترى الطَّود الشامخ قائما على الارض كأنه أرض مستقلة وفي جوفه ما يَحْطِمُهُ مما يَمور ويضطرب (١)

وكأني إذ لا احاسب الناس أحاسب نفسي بكل ذنوبهم اليّ فأفجِّرُ عروقَ دمي عليهم . وكأن ذلك الكمال الانساني الذى لا يزال بعيداً عني يحاول أن يقتلعني من اساسي لأثب َاليه في اقاصى عُلوِّه

ان النملة من النمل لتخاف على قَرْيتها من قَدَم الطفل الرضيع ما نخاف نحن على كرة الارض من أكبر نجوم السماء متى خشينا أن يتنفس عليها فيرسلَها زَفْرَةً في صدر الأبد . وكم بين قرية النمل وبين كرة الارض ؛ وأين وطأة الرضيع من صَدْمة النجم ؟ ولكن كل شيء فانما هو باعتباره في نفسه وباعتباره لنفسه ؛ ألا وإن الزلزلة التي يُضْرَبُ بها ذلك الجبلُ القائم من نفسي انما هى رِقَّةُ الحبّ

(١) يسيل ويغلي

« * »

وان تَعْجَبْ فَعَجَبٌ ما تَرى أن هذا القلب الانسانى لا يُصْبِحُ هَشِيمةً (١) في جنبي صاحبه يأخذُ الناس منه ويَدَعون كيف شاؤا الا اذا أنبت الله صاحبَه المسكين من نَبْعَةٍ باسقةٍ في مَغْرِسٍ طيّبٍ (٢) واخرجه فى صيغة كريمة واودع فى اعصابه ميراثاً سامياً من الدم . ولقد تجد هذا الرجل الكريمَ ملءَ ذكائه دَهَاءً ونُكْرًا (٣) ونَفاذاً فى أعضل الامور يَنْقَعُ فى الحوادث فِكرَهُ كما ينقع الثعبان نابَهُ المسموم ، وقد تجده فى بدنه شديدَ الفِحْلَةِ معصوبا عَصْباً كأنه من عَضَلاته فى لفائف الحديد (٤) ؛ ولكنك تجد قلبه شيئاً غير هذا كله ، لا يُسْرِعُ إلا فى هدمه ولا يتركه يدور كما يدور غيره على الخطوط والأضلاع الطويلة

(١) مهشوماً محطماً وفلان هشيمة الناس وهشيمة كرم يأخذه الناس كيف يشاؤن لانطباعه على الكرم والسهولة (٢) المراد بكل ذلك كرم الاصل (٣) أي سياسة ومكرا (٤) الفحلة هيئة الفحولة وقوتها في الرجل

من زوايا الحياة بل ينفذ به الى الهموم من أقطارها على استقامة . فما أسرع ما يتهدَّمُ وتَتَقَصَّفُ سِنُه بعضُها على بعض (١) وربما كان فى الاربعين فلا ترى إلا ان العمر يخَيِّطُ فى ثوب همه بأربعين إبرة .

بهذا القلب رأيتنى كلما كبرتُ صَغُرَتِ الدنيا فى عينيَّ وكلما تقدمتُ دانيتُ أطرافها العليا فأصبحتُ أشعر حقا أن هذا العمر انما هو سُلَّم الى السماء لا الى غيرها ؛ ومن هذا القلب اعتادت بعضُ سُفُن الاقدار أن تجد فيه حَلْقَةً ثابتةً متينة تَشدُّ اليها حبالها اذا هي أرست على شاطيء الدهر بأحمالها ؛ فالناس يتناولون منها خِفافا وثِقَالا ولكن الحلقة المعذبة لا عمل لها الا أن تهتز وترتجَّ من الالم والشدة والعنف

وفى هذا القلب أعرف موضعَ كل شيء الا نفسي فما أدرى أهو من الضَّعَة بحيث صارت فوق أن تنزل فيه أم هو من السموّ بحيث صار نفساً وحدها ؟ ولكنه على

(١) تمر أيامه مسرعة

الحالين أشقاني بهذه النفس وطوّح بي وبها في مهَاوي الاحزان الى قَرار بعيد

« * »

في قلب كل إنسان معنى من الأزل لانه كان ذَرَّةً في يد الله ، بَيْدَ أن هذه الذرّة تُمحَقُ في بعض الناس أنواعاً من المحق ، فتصيبُ الرجالَ وانه لعظيم جليل ولكنه في ميزان الله لا يَعْدِل مِثقالَ ذرة من حَسَنَةٍ من رجلٍ حقير ؛ وتَرْبُو في بعض الناس وتَتَنَفَّخُ فاذا هي في وزنٍ الجبل الراسخ بأعضاده (١) المترامي بنواحيه ؛ فيا قلبي المسكين ما أنتَ منهما ؟ لقد تعذبتُ بك طويلا وتقَلَّدتُ منكَ بَلِيَّتي فما تَغْمِزُ بعِلَلِكَ ونَزَعَاتك الا في صَمِيم الروح غمزاً كوَخْز الإبَر ، ولا تَضْربُ عروقي التي تَستَقي منك الا على ألم تأتيني به إذ كنتَ لا ترميني الا بشرّ ما تجدُ من هموم الناس ؛ واذ ترى أن درس الشر والآلام انما هو عنصر الفلسفة الأسمى وانما هو الفضيلةُ المنحلّة لمن يريد أن يعلم

(١) التلال المحيطة به

ويرى كيف تتألف أجزاء الفضيلة في باطنها . فأنت تَنْتَشِطُ (١) الحزنَ من كل شيء وتأتيني به لأتحزّن وأتألم فألمس بالحزن والالم مصراعي باب السماء . وأنت تبسط عليّ رُوَاقَ المعانى المظلمة من الآلام والاحزان لارى في ظلماتها أشعة روحي المضيئة بالايمان والرضا

رضيتُ ياقلبي المسكين أن تجتمع من حُطَامي المتناثرة وان تكون سَوِيّاً تامًّا وأكون أنا الجسمَ الحيوانى أشلاءً وبقَايا (٢) ، فانى رأيتُ شرَّ أهل الدنيا ذاك الذي هو أهنأهم بمتاعها حتى كأنه في شهواته ولذاته لم يجتمع الا من حُطام قلبه المتبدد . الشهوات واللذات تبنى عالماً والآلامُ والاحزان تبنى عالما آخر وهما يتجاوران كما يلتصق حائط الليل بحائط النهار ، وانت ياقلبي المتألم لا تُشْرِفُ على العالم الأول الا مايشرف النظر العالى من البعيد البعيد لانك طَوْدٌ باذخ رسختْ جذوره في العالم الثانى

ان الابرَةَ المغْنَطَةَ (٣) التي تَهدي السُّفُنَ باتجاهها هي

(١) تختطف (٢) الأشلاء الاجزاء المقطعه (٣) البوصلة

القلب الذى تحمل فيه السفينة روح الارض ، والقلب الانسانى هو كتلك الابرة غير انه يحمل روح السماء . ولولا حاسة الاتجاه الالهي فيه لتمزقتْ علينا جهاتُ الارض [(١)] فى انفسنا فَضَلِلْنا فيها وارتبكنا فى فُتُوقها الواسعة حتى لا يهتدي إنسان الى الجهة الانسانية . ولكننا نتغافل عن هذه الحاسة فيه وترى اكثر الناس لا يُقبلون بأنفسهم الا على جهة أجسامهم ويَطْوِي احدهم الدهرَ الفسيحَ من عمره وما ارتفع قليلا ولا كثيرا بل يكون كالطير في قفصه يتخبط بين أرض وسماء ، وما بين سمائه وارضه الا علو ذراع ... وان أشد ما كانت الحياة واشدَّ ماهى كائنة على من لايجد لذة قلبه فيها ، وأصعب ماتكون الانسانية على من يعظُم بحيوانيته وَحَسْبُ [(٢)] ؛ فتراه وكأن مثة حمار ركِّبت منه فى حمار واحد ولكنه حمار عظيم ...

وما رأيت قلبي يلتمس لذةً من بعد إيمانه الا فى

(١) كناية عن الشهوات الحيوانية (٢) أى فقط ، وقد عم استعمال هذه الكلمة وكنا أول من استخرجها وأذاعها

ثلاث: الفكر الانساني الذي يهبط في أدمغة الفلاسفة والشعراء من أعلى السموات أو ينبع من أغوار النفس؛ والفكر الطبيعي الذي يملأ السماء والارض نورا وألوانا وجمالا؛ والفكر الروحي الذي يتلألأ لخيالى فى عيني الحبيبة الجميلة.



الرسالة العاشرة

لقد وصفتها لك أيها العزيز وملأتُ رسائلي منها ؛ غير أني والله ما أدرى أوصفتُها أم وصفتُ بها ، وكتبتُ منها أم كتبتُ عنها ، فانما ذلك مَطْلَبٌ دونه أن تجعل وصفَ الجَمْر يلذع لَذْعَ الجمر ؛ ومهما أكتبْ فانها باقية في نفسي لا تنقصُ على قدر ما تزيد . . . إن فيها شيئين هما الفكرُ والجمال وفيَّ شيئان هما الخيال والحب ؛ وهذه الأربعة تُنْشِئُها في نفسى خَلْقاً بديعاً لم أره لامرأة قطّ ، ففيها وحدها زيادة عن النساء لان فيها وحدها نفسى

أما سمعتَ بذلك الأعرابي الذي قيل له ما بَلَغَ من حبك لفلانة ؟ فقال والله إني لأرى الشمسَ على حائطها أحسنَ منها على حيطان جيرانها . . . . قد والله صَدَقَ وبَرَّتْ يمينهُ فان فى كلماته الشعرية لاثرا من عينيه إذ يرى الشمس على حائطها كالشمس على البلّور الصافي لا على الحجَر والمَدَر ؛ فهناك أشعةٌ أخرى من تلك التي وراء الحائط تنفذ الى قلب هذا المسكين فاذا هي سَطَعَتْ لخياله في نور

الشمس أضافت الى النور ألواناً مختلفة من ذلك المعنى الجميل الحيّ فلا تكون الشمس في عينيه أحسَن مما هي وقتئذٍ ولو أنها طلعت على حائط من اللؤلؤ

ليس الجمال ما يَعْلم الكاتب أو يدرسه الفيلسوف ولا هو مذهبٌ من مذاهب التلفيق في الجمل والألفاظ ولا هو كما صنع علماء الرياضيات الذين جعلوا الفَلَكَ كلَّه بألوانه وجماله وما فيه من غموض الا بد مسئلةً حسابية . . . . والارضَ بما انبسط عليها من جمال الطبيعة مسئلة هندسية . . . . كأَن الازل كله خطوطٌ وزوايا وأرقام ؛ وتركوا جانباً حركةَ الفكر الأعظم القائِم بالارادة الازلية؛ وهي التي تُطالِعُ العقلَ من كل شيء بمعنى والخيالَ بمعنًى آخر ثم تكون هي في حقيقتها المجهولة معنى ثالثاً . ولكنك مع ذلك واجدٌ في الارض من يَتَسَكَّع ويحملُ الشمعةَ ليفتّش في ضوئها على النجم العظيم . . . .

« * »

لو أنى سُئِلتُ تسميةً لعلم الجمال لسميتُه « علم تجديد

النفس » فإن الجميل الذى لا يجدد بمعانيه حواسك وعواطفك ويُعيدها غَضَّةً طَرِيَّةً كما فُطِرتْ من قبلُ ؛ لا يُسمى جميلا الا على هذا المَجَاز الذى سمَّى به أحد القواد كتابه في الصنَّاع الفقراء : (غَزْو الخبز) . . . لا تَسَل عن الجمال من يُحسن الفكرَ والإبانةَ عن فكره ، ولكن سل عاشقاً يُحسن الشعورَ والتعبير عن شعوره ؛ فذلك هو الشاعر من جهاته الأربع : جهة قلبه وفكره وحوادثه وحبيبته ، وذلك هو تاريخ الجمال الذي يتكرر على الأرض أبدا والى مُنْقَطَع الحياة في صورة واحدة كالحياة نفسها

ألاَ ما أتعبَ الانسان بحياته وموته ؛ إن هذه الحياة مصيبة كُتبت على الأرواح لإيجاد عيوبها في عالَم العيوب ؛ والموت مصيبة كُتبتْ عليها لنقل هذه العيوب معها الى العالَم الآخر ؛ فما عسى أن يكون الجمال والحب الا تخفيفاً من مصيبتين أو . . أو زيادة فيهما ؟

سأحدثك عن هذا الجمال كما أَوحته الي عواطفي التي ما تزالُ تَدْأَبُ لا تَأْتَلي كالنحل على الأزهار والألوان ،

وكما رأيته في تلك الحقائق الساحرة التي كانت تفيض بمعانيها على الجميلة فتكسبُها غَرابةَ الجمال وتُمثِّلُها لعينيَّ في ثلاثة ألوان : لونٌ من وجهها ولونٌ من دمها ولونٌ من قلبي .
سأَنْشُر لك الجميلة وأسرارَ جمالها وتأثير جمالها نشراً ألَّفني والله قبل أن أؤلفَه ، وما صعِد الى فكري وانحدر من قامي الا بعد أن وَقَدَتْ عليه الجَمَراتُ الحُمْر فَغَلَى في القلب وتبخَّر واندفع وطار اليك في كلام كالندى على الورق الأخضر

« * »

إن في نفس هذا الانسان أعماقاً بعيدةً تنحدر أغوارُها من مَهْوًى الى مَهْوًى الى مالا نعلم لأن النفس ما بَرِحَت جزءاً من الأزل كبعض النور من النور ، ينفصل عنه وهو مُسْتَقِرٌّ فيه
وقد نَثَر الله في أعماق الفضاء هذه المصابيحَ المتَّقِدةَ التي اهتدى فى ضوئها الفكرُ الانساني الى شيء من الادراك الاسْمَى ؛ من ذلك النور الذى يشتعلُ ويَتَوهَّج

في أقطار السموات كلها . وكما ترى فى أعماق الفضاء ترى في أغوار النفس ، فلا بدَّ لهذه مما لابدَّ منه لتلك من معانى النور الالهى ؛ فالكوكب يُضيءُ فى أعماق الفضاء والوجهُ الجميل يضيء فى أعماق النفس

ألم ترَ الى المحب الذى أدنفَهُ الحب كيف يشعر أنه متصل بالنور الأزلى من الحسن الذى يعشقه ؛ وكيف يرى فى أطواء نفسه أخفى الوساوسِ وأدقَّها كأنها مكشوفةٌ لعينه على الضوء ؛ وكيف يظلُّ أبداً فى حبه كأنما يبحثُ فى الأرض عما ليس فى الارض . ويحاولُ أن يجدَ فى قلبه مالا يُخْلق فى القلب ، وكأنه وحده الذى يعلم من نفسه أن فوق كل طبقة طبقةً أعلى وتحت كل عُمْق عمقاً أسفلَ ، فلا يَقْنعُ بشيء لامن عاليها ولا من سافلها ؟ وانظر كيف يجعله حبُّه العظيم يرى العالَم كلَّه صغيرا حقيرا ؛ واذا اتفقت له ساعةٌ من حبيبته رآها عجيبةً كأنها ليست من الحياة أو ليست الا الحياة ؛ فهل وَسِعَتْ نفسُه من الحب شيئا لاسبيل لأن يُقاسَ معنى العالَمِ به ؛ أم صارت

أعماقُها تطاوِلُ أعماق الفضاء ؛ فهو بالحب كائنٌ فيما حوله وما حوله كائن فيه ؟

« * »

لا أرى سرَّ الجمال الا أنه شيء حقيقي من تلك القوة السماوية التي نسميها الجاذبية ؛ فكأن الله حين يُبْدِع الجميل يُرسِل في دمه مع الذرَّة الانسانية ذرةً من مادة الكواكب هي سرُّ عشقه وجاذبيته ، وهي بعينها معنى تلك القوة التي لا يزال الجميلُ يُخضِعُ بها كما يُخْضِعُ الفَلَكُ المُدار . ويتسلّط على عاشقه كما تتسلَّط الأقدار ، ويَبُثُّ في الدم الانسانيّ مع مادة الدم مادَّةً من النار

وما أساليبُ الدلال أو ما نراه دلالاً في الجميل المعشوق الا اضطرابُ تلك الذرة من سكونها ؛ فانها متى تحركت للجاذبية جعلت الجميل يتلألأ من كل جهاته وانبعثت في كل ناحية منه نورا فوضعت لكل شيء فيه معنى من المعاني الخيالية إذ هي معنى كل شيء فيه

ولو أنك سألتَ عاشقاً أن يُصادِمَ من يحبُّ ويتّسعُ

لهجرها ونَبْذها ويتجَافى عن هواها لكانت عاقبة ذلك فى نفسه ويقينه مايعلم من العاقبة فى مصادمة الأرض لكوكب من الكواكب ، إذ يتحطم ولا يُغْنِي شيئا فى تعطيل قوة الجذب المُنْصَبَّةِ من قمره الجميل على كُرة قلبه الضعيفة

وكما نجدُ للكواكب فى نظام السماء نعرفُ نَحْواً من ذلك لكواكب الجمال فى نظام النفس . فليس كل ظريف جميل يَجْذِبُ حسنُهُ فى كل دائرة على ماشاء وشاء الهوى ، والا فسدت الارضُ وأصبح الجنسان فيها كحجَري الطاحون لاعملَ للاعلى الا أن يطحنَ على الاسفل ....

بل إن لكلِ جميل فَلَكاً لاتَعْدُوه قوة جذبه فاذا هي تخَطَّتْه الى فلكٍ غيره بطل عملُها أو عَمِلتْ على ضعف أو وقعتْ ثَمَّ موقِعَ صوت القنبلة : يخرج منها وليس فيه شيءٌ منها . ذلك بأن الله قد سلَّط على هذه الارواح السماوية موادَّ مختلفةً من ثقل الارض لا تبرح تُدَافِعُ تلك المادةَ من جاذبية السماء فإِمَّا أبطلتْها وإما كسرتْ من حِدَّتِهَا وإما أضعفتها وإما طمستْ عليها ؛ ما لم تكن النفسانِ

العاشقةُ والمعشوقةُ من فَلك واحد في القَدَر الجاري عليهما فلو أن أرقَّ من غمزَ الحبُّ على قلبه من الشعراء الذين يجعلون الكلمة الواحدة كلاماً طويلاً ، يحدِّثك يوماً عن تلك الجميلة التي كَلِفَ بها وَاخْتبَلَتْه بحبها (١) فأرسلتْه على وجهه في كل مذهب من مذاهب الهوى ؛ ثم يَتفَتَّحُ لك في صفتِها بكل ما تخيَّلَ حِسُّه وأحسَّ خياله فيُفْرِغها في القالَب الذي لم يخلق الله فيه امرأةً قط ، ويصبُّها لعينيك مُمَثَّلَةً من النور السماويّ المحْض تُضيء كلُّ قطرة منه وجهَ مَلَك من الملائكة ؛ ثم يجري كلامُه فيها شعراً خالداً مُطَّرِداً كنهر الكوثر في رياض الجنة حافتاه من ذهب ومَجْراه على الدُّرّ والياقوت : ثم يتفق لك بعدُ أن تراها وتجلس اليها وتُطارحها ولستَ من فَلَكها الذي تعمل فيه جاذبيتُها . إذَن لرأيتَه قد غار من أوصافها في بئر من الكذب وتعلّق في الحديث عن جمالها بخيوط من الباطل ونزل من الحقيقة التي كان يذكرها لك منزلةَ المُفلِس يَظنّ

(١) اصابته بالخبل والجنون

متَسَكِّعاً فارغاً يُتبِعُ نفسَه هواها وَيتَمَنَّى الامانيَّ ولا حقيقة . ولرأيته كالعنكبُوتِ تقضي الأيام الطويلة في نصب أشراكها وحبَائلها لأجمل ظَبْيَة في عينها .... ثم لا تكون ظبيتُها الا ذُبابة . وتردُّ عليه سوادَ أمره وبياضَه كذباً وزُورا وتتَّهم ذوقَه وتُهَجِّن طبعَه وتتقي عليه أن يكون قد تَخَبَّطَه مَسٌّ من الشيطان ؛ وأنت على ذلك مستيقن أنك تكلمه فيها بأصحّ لفظ وأوضح معنى وأصدق نصيحة وانك تُلقي في اذنه براهينَ المنطق وحُجَج الفلاسفة وتصحّح له خطأه في رائحة الزهرة بالزهرة نفسها تقول له ها هي ذِهِ في ريَّاها ونسيمها فأين ما زعمتَ لها ؟ على انه هو في كل ذلك لا يراك الا كالأقطع الذي يُقَدِّرُ قياسَ الباع الطويل ببقايا ذراعيه ، والمُقعَد الذي يضبط قياسَ الخُطوة الفسيحة بمد رجليه ؛ والأعمى الذي يُفاضِل بين لونين ؛ ويكذِّب في رأيه ذا العينين ، ويراك مجنوناً فاسدَ العقل أو سخيفاً فاسد الذوق او احمق فاسد الرأى : وما بك ولا به بأسٌ غير انك تنظر مُدْبراً وينظر مُقبِلا ، وتهزأ بتيَّار البحر

لان قدميك فى الشاطىء ويرهبُه هو لانه مندفع فيه منخلعُ القلب من فوَرَانه وهَديره . وأنت تروي فيما وصفتَ لهُ بلسانك عن عينك عن هذه المرأة ؛ وهو يروي فيما صوّر لك بالسنَد الطويل : بلسانه عن عينه عن خياله عن آماله عن قلبه عن روحه عن القَدَر المحتوم عن هذه الحبيبة . وأنت في نفسك كانما تنظر من الأرض الى النجم فلا تراه بعلم ولا يقين ؛ وهو في نفسه انما ينظر من فَلَك النجم الى النجم ذاته فاذا الكوكبُ ماهو . واذا فَضَاءٌ واسع من النار وجوٌّ عميق من المغناطيس ومَظْهَرٌ من القدرة العظمى جمالُه في هيبته وهيبتُه في قوته وقوتُه في جماله فهو شيءٌ واحد بعضُه من بعض

((*))

واذا رحم الله انسانًا من هذا الحب ومن التعلق بالجمال كدَّر طينته وأغلظَ على نفسه بموادّ ثقيلةٍ من هموم الحياة وأكدار العيش ؛ او افرَط عليه بآمال النفس وأطماع الحاسّة فيشغله بكل ذلك او بعضه ويَحُوطه منه بمثل

أكياس الرمل التي يتحصّن وراءها المُقَاتِلةُ فلا تنفذُها الطائرات الحمر (١) بل تنطفىء فيها، ويجعل له من دون العيون الذابلة والحاظها صدراً مُصفحاً بما يتساقطُ في داخله من جوانب نفسه وما يتصدّع من اركان قلبه بين الكمَد والهمّ أو الامل والطمع أو الجهد والتعب او الثقل والغلظة او غيرها من هزاهز العيش ودواهيه ؛ فتذهبُ سطوةُ الجمال في سطوة المادة ؛ وتُخضعُ الانسانَ قوةٌ بإفلاته من قوة اخرى ، ويُهْدَمُ من أعلاه ليُشَدّ بناؤهُ من أسفله

وما من أحد في الأرض يستقيم طبعهُ على الجمع بين همّ الحب وهم الحياة فان قام بواحد زاغ من الآخر لا يبالي به إذ هما حقيقتان متدافعتان كتيَّاري الكهرباء ، لو أمكن شيء من المستحيل لما أمكن أن يَطَّردا في سلك واحد اطِّرادَهما في السلكين . فان لم تكن مَحَامِلُ هذا الجسد (٢) خفيفةً على النفس من جهات الفكر والهمّ والا انصبَغَ الذوقُ فالتبست ألوانهُ وخالط بعضُها بعضاً

(١) الرصاص ونحوه (٢) اغراضه المادية الحيوانية التي تحمله

وضعفت موهبةَ التمييز بين المعاني المضيئة وصار الانسان همًّا كافياً لنفسه وعادت النفس همًّا كافياً لصاحبها فليس بينهما على ذلك موضعٌ لما ليس منهما . وتحُولُ مادةُ ذلك الهم بغِلظتها وجفائها بين السرّ المعشوق في الجمال والسر العاشق في الروح فلا يُدرك منهما شيءٌ شيئاً

فهذا الجمال إن شئتَ قدرةٌ لا قوة فيها ، وان شئتَ قوةٌ لا قدرة لها ؛ ولو أن الله جعلهُ مجموعاً من القوة والقدرة معاً لأَبطل سُنَن الطبيعة الانسانية ولصار لكل انسان كونٌ وحدَه في القلب الذي يَرِفُّ ليخفق على قلبه ؛ ووطنٌ على حِيالِه في الجسم الذي يحنُّ لينضمَّ الى جسمه ؛ ودينٌ على حِدَةٍ يهبط الوحي فيه نَظَراتٍ من عينين الى عينين ، وقانونٌ مستقِلٌّ لا تكون موادُّه الا قُبُلاتٍ من شفتين على شفتين . واعلم ان اشقى المخلوقات هم اولئك التعساء الذين يَشَذُّون في تاريخ الناس احياناً وينفردون دونهم بجنون الحب كما حدثوا عن (مجنون ليلَى) [1] إذ

---

(١) هو مجنون بني عامر الشهير واسمه قيس رحمه الله

يتسلط عليهم الجمالُ بضَرب ممتزج من القوة والقـدرة يَغمُرُ الطاقةَ الانسانية ، ثم تجيء أقدار غريبة بين الرحمة والقسوة فتجذب الحب الى الحبّ ولـكنها تدفع المحبَّ عن الحبيب ، فلا يزال الجمال يسوقهم سوقاً عنيفاً من ناره الى باب جنته ثم يَرُدهم عن باب الجنة الى النار حتى يصبح الواحد منهم بين العناصر والنواميس المنتظمة في هـذا الـكون الانساني كانه عنصرٌ مجنون او ناموسٌ مختلّ

« * »

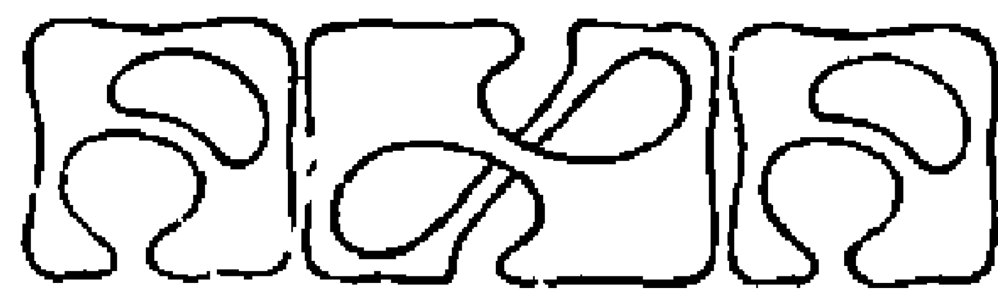
إن هـذا الانسان وعاءٌ من الأوعية لا يملأه الا الأفكار والنَّزَعات ومتى احتـلّ الفكرُ وتمدد ، ثم ضرب فتَمكّن ، ثم غار بجـذوره وانْشَعَبَ بفروعه صبغَ الاشياء كلّها في عيني صاحبه بألوان منه حتى كأنه لا ينبعث في اشعة النظر الا ليلبس كلّ ما تنظره العين فلا يرى المرء فيما يَرى الا صُوَراً من فـكره كما تنبعث اخيِلَةُ السيما (١) في انوارها على حائطها فاذا هو تاريخ

(١) خيالات السينماتوغراف

وحكاية وعمل وَحياةٌ واذا هو هي على أنه حائط . ولم يخلق الله فيما أعرف غيرَ الحب فكراً يتمكّن من الانسان ويضربُ الضَّرَبَات الثقيلة فيستطير في قلبه استطارةَ الصَّدْع الشادخ في لوح الزجاج ، يَشُقّه على مَدّ ما تتصل اليه حركتُه وَيثامُهُ على غير قاعدة من هنا وهنا و يَدَعُه فُلُولاً تَتَشَظَّى (١) وما هذا الحب الا فكرُ الجمال وأثر عمله في النفس ، إذ كان الجمال الفاتن لا يُخلق على ذلك الأُسلوب الذى هو عليه الا ليَستَحْوِذَ على التخيُّل والحس معاً ؛ فهو نوع من جَوْر الطبيعة على الانسان يجيءُ من اتصال أحسن ماظهر في شخص بأحسن ما كَمَنَ في شخص آخر ؛ وهو كذلك نوعٌ من استثارة هذه الطبيعة لكل مافي أعماق النفس الانسانية ببعض مافي أعماقها هي . فالعاشقُ مُقْتَتَلٌ (٢) بأسلحة طبيعية منها كلُّ نظرة من حبيبه وكلُّ كلمة وكلُّ حركة وكلُّ مامسَّه أو اتصل به منه . وذلك لأن قوة طبيعية عجيبة تَنْفِثُها رهبةُ الكون وتحصرها بين نفسه

(٢) بقايا تتفتت وتتناثر (٢) مقتول

ونفس حبيبته لتجعل منهما طريقي سلبها وايجابها ؛ هذه القوة هي الفكر ؛ هي ذلك الحب ؛ هي الكهرباء المتألفة من نفسين . ومثلُ ذلك بعينه في الضرب على قلب الانسان مايتملكّ هذا القلبَ من هموم الدنيا وشدّات مصائبها . كِلاَ الفكرين قتّالٌ من الطبيعة غير أنها في أحدهما باسمة وفي الآخر عابسة . تَقْتُلُ الانسانَ بما يُحب كما تقتله بما يكره وهما طريقتان لاتسلك غيرهما اذا أرادت أن تنفذ بقَدَر من الأقدار الماحقة الى باطن النفس لتترك هذا الانسان المعذَّب يُحِسُّ بغَمْزِ القوَى الخَفِيَّة على فؤاده



الرسالة الحادية عشرة

تقول أيها الصديق : « ألاَ زدنى ثم زدنى فأن ليلك الحزينَ قد تفجَّر لك بصبح من تلك الشمس ، وان قلمك ليجمع أشعةَ النجوم ويصوّر منها ذلك القمر ، وانك لأنت المحبُّ الذى يخرجُ من جنونه العقلُ الكامل . ولئن كانت تلك الحبيبةُ قد اختَلَجَتْ نفسَها (١) من يدك فما ذلك إلاّ أنها مَلَكٌ مدَّ اليك جناَحه وأمكنك منه ثم انفَلَتَ ليدَع في يدك الريشةَ السماوية التى تُصوِّرهُ بها »

كذلك كانت تقول هي: « أنا لا أخشى غضبَك فان غضبك عليّ لا يكون الا السحابةَ المُطَرّزَةَ بخيوط البرق تهبط في ألوانها مُذَهَّبَةً وتُجَلْجِلُ بأجراسها من بعيد لانها تحمِلُ اليك مَلكَ الوحي الذى لا ينزل عادةً إلا في جوّ من البرق والرعد »

« * »

ما كثرت أمراضُ التأويل في شيء كثرتَها في تصرُّف

(١) انتزعت نفسها كناية عن الهجر

حقيقة الجمال ؛ على أن هذه الحقيقة لا تُستَخرَج إلا من الدم ؛ فلو فتّشت عليها السماء والارض فلسفةً لجئتَ فيها بملء السماء والارض كلاماً كذبا

الجمال في حقيقته التى لا تختلفُ انما هو معنًى من المعاني الحبيبة يَعْلَقُ بالنفس فيُحْدِث فكراً متمكنا تَتَطَاوَعُ له هذه النفسُ العاشقة حتى ينطبع في أعصابها فيستوليَ على الانسان كله بجزء من عقله ؛ ومن ثَمّ يتقيّد المحب بقَيد لا فِكَاكَ له إذ لا يجد ما ينتزعه من عقله او ينتزعُ عقلَه منه إلا ان يموت او يُجَنّ ، وهو من ذلك المعنى مُحتَبَسٌ فى قُفْل لو ضَغَطَتْ عليه السمواتُ والارض لما تَسَنّى ولا انكسر ، وليس الا الحبيبةُ وحدها هي فَتْحُهُ وإغلاقُه

بهذا يكون الجمالُ على مِقدار ما يُحسِنُ الانسان أن يفهم منه ، ثم على مقدار ما يُؤَثّر من هذا الفهم ، ثم على مقدار ما يَثْبُتُ من هذا التأثير . وتلك هي درجاته الثلاث :

فجمالٌ تستحسنُه ، وآخر تعشقُه ، وجمالٌ تُجَنُّ به جنونا

والأول تجودُ به الطبيعةُ في أشياء كثيرة بل هو الأصل في الخَلْق ولكنا لا نَتَنَبَّه منه الا لما نجد فيه رَوْحاً على القلب ورقَّةً للنفس وترفيهاً لهما ، وهذا الجمال خاضع للانسان ومن ثَمَّ فلا سلطانَ له الا بعضُ الميل والرغبة في النفس ، ومنه كلُّ مناظر الطبيعة

والثانى تعلو به الطبيعةُ عن هذه الطبقة وتُنْزِله منزلة أعلاقِها وذَخائرها النفيسة وتتسلط به على بعض النظام الانسانى كما تتسلط بهذا النظام على بعضه فيحبُّ الانسان ويسلو ، ويمرضُ بالحب ثم يصنعُ بيده دواءَ مرضه ويشربُ منه السُّلْوان والعافية .... إذ هو بإزاء الجمال الذي يتسلط من ناحيةٍ ويخضعُ من ناحية تقابلها

والثالث لا يَجِده من يَجِده الا مرة واحدة كما أنه لا يموت الا مرة واحدة ، وهو من خَوَارِق الطبيعة التي كلُّ نظامها أن العقل لا يعرفُ لها نظاماً ، وما هو الا أن يصوِّبَ الانسان رأسه فاذا هو عند جنون الحب واذا هو بجنونه فوق العقل والمعقول

فالمرأةُ في عين محبها المَفتونِ أجملُ من مَسَحَتْ يدُ الله على وجهها من النساء فتركت الأثرَ الالهيَّ يتسلّط في سحر عينيها ، وطَبَعَت المعنى الناريَّ يتلهّبُ في شعاع خدَّيها ، وأودعَت رَوْحَ الجنة أمانةً بين شفتيها ؛ ووصلتْ بين الرحمة والنفوس بذلك النور المتلألىء في ثغْرِها ؛ وبين النِّقْمة والقلوب بتلك النار المُسْتَعِرة من هَجْرِها ، وأضافتْ الى النواميس النافذةِ في الكَوْنِ فُتُورَ عينيها وتنهُّداتِ صدرها

ويراها المحبُّ فما يحسبُ الا أن قطعةً من السماء قد صارت ثوبا لجسمها ، وأن قدَراً من الأقدار قد نَشَأَ على الارض وسُمِّي باسْمِها ؛ واذا نظر اليها عَلِمَ بدلالة وجهها أنها من القمر ، واذا نَظرتْ هي اليه أعلمته بدلالة لحظها أنها من القَدَر

وتُسالِمُهُ فيَحِلُّ سلامُ الدنيا كلّها في قلبه ، وتُغاضِبُه فيقع في حرب هذه الحياةِ وتقع الحياةُ في حرْبه ، واذا ضافت الجميلةُ به ساعةً واحدةً لم يبق له بالعُمر استطاعة،

واذا كان الهَرَمُ بالسنين الطويلة هَرِمَ في هجرها بالدقيقة والساعة

ويرى لو أن الجمالَ نفسهَ خُلق امرأةً لكانها ، ولو جادل احدٌ في المحاسن لجعلتها المحاسنُ بُرْهَانَها ، فهي تُقْبِلُ بوجهها الفتَّان كما تُقْبِلُ السعادة بالأمل الوَسِيم ، وتَختَالُ بمعانيها النسائية كما تهبُّ روائح الازهار في النسيم ؛ رَفَّافة على الحب كأنها خُلِقَتْ في جنة الحب رَيْحانَة ، مُسْكِرَةٌ للعاشقين كأن نهر الخمر في الجنة جعل فمَها لهـذا العاشق حَانَة ، صافيةٌ يَتَرَقْرَقُ في حسنها ماءُ دَلاَلِها ، وتُشْرِقُ بالقمر الأزهر من وجهها سماءُ جمالها ، ولا تُشْبِهُ الا نفسَها كما لا يُشْبِهها الا ما تبْدِي المرآةُ من خَيالها

وَيغلو فيفَسِّرُ النظرةَ منها تفسيرَ الفقيه المتكلِم للآية ، ويقفُ عند الابتسامة وقوفَ السابق اذا فاز عند الغاية ، وينظر اليها في ثوبها ولكن كما ينظر القائدُ الى مجد وطنه في الراية ، ويسمعُ صمتَها كأنه كلامٌ بين نفسه وبينها ، ويَعي كلاَمها فلا تدرى أأنْطَقَتْ به فمَهَا أم أنطقت به عينَها ؛ فهي بجملتها ليس

فيها من الحسن الا وَحْيٌ و تَنْزِيل ، وهو بجملته ليس فيه من الحب الا تفسيرٌ وتأويل ، ثم هي وحدَها القاعدةُ العامَّةُ في الجمال وهو وحدَهُ البرهانُ والدليل

وتراه ينظر اليها ولكنه من سحر جمالها كأنه يتَوَهَّمُها ، ويَعْرِفُها ولكنه من سَطْوة جلالها كأنه لا يَفْهمُها ، ثم تعلو فما يُشْرِقُ حسنُها عليه الا كالمعنى الازليّ من جانب في الغَيْب ، ثم تَعْظُمُ فلا يُدْرِكُ مافيها من الحقيقة السماوية الا على طريقة أهل الارض في إدراك الحقائق العُظْمى بالإيمان والرَّيْب

« * »

تلك هي الحبيبةُ الجميلةُ لاتعرف ان كان الجمال في شخصها أو في الجزء المتَّصل منك بشخصها ، أو في الذي هو متَّصلٌ بك من شخصها . فهي جميلة من ناحيتك ومن ناحيتها ومما بينهما ؛ وهذا هو الذي يجعلها فوق الجمال الانساني بَطَبَقتين لا تسمو امرأة الى واحدة منهما ؛ ويجعلك ترى مافيها من الإبهام جمالاً لاتفسيرَ له ومافيها

من التفسير جمالاً مُبهَماً ؛ فكأنها في كل ذلك دائرةٌ مرسومة من الفكر لا يَهديك البحث الى موضع طَرَفَيها . وهي محيطةٌ بروحك من ثلاث جهات فلم يبق لك الا الجهة التي تتصل روحُك منها بيد الله . وهذا هو موضعُ التأليهِ في الجمال المعشوق ، إذ لا يَدَعك الحبُّ معه الا بين شيئين اثنين : الحبيبةِ والخالق

ألم تَرَ الى شعراء الدنيا وهم أنبياء الجمال الذين لا تتصل ملائكتُه بغيرهم ولا يَفهمُ غيرُهم ما يفهمون منها ؛ كيف يُشبِّهون الحسن الرائع بكل ما في الخليقة من مظاهر الرَّوعة ، فيتناولون من الآفاق والسُحُب والبروق والرعود ومن الشمس والقمر والنجوم والأفلاك ، ومن الخُلْدِ والجنة والنار ؛ ويأخذون من الجبال والبحار والأنهار ومن الرياض والأزهار ثم من الطير والوحش ثم من المعادن وأفلاذِ الأرض ، ومن كل ما خَتَمَتْ عليه يدُ الله برَوعة أو طبعت عليه برَهبْة ؛ ويجمعون ذلك ثم يُفيضُونه في أوصاف الجميلة وجمالها حتى لكأنها ذلك السرُّ الذي قام به

حسنُ الخليقة وحتى كأن الله لم يخلقها الا ليكون كلُّ شيءٍ فيها تفسيراً لشيءٍ مافي آيةٍ من آياته . وما ذلك بمبالغة من الشعراء ولكن أرواحهم الجميلةَ قد أُحيطَ بها من هذا الجمال النسائى فأينما أَحَسُّوا رأوا له صلةً بإِحساسهم وضَرَب فى افئدتهم عِرْقٌ منه فانْقَدَحَ له شعاعٌ يطير الى الفكر لانه بعضُ القوة الموَّجهة اليه من الروح المفكِّر

إن الجميلات إنما هُنَّ كوا كب الارض يَدُرْن في أفلاك القلوب ، ولستَ ترى فلكيًّا يرصُدُ نجومَ السماء الا وعينيه مِنْظَار تَكبُرفيه الاشياء (١) أضعافاً الى أضعافها فيدنو بالبعيد ويَجْهَرُ بالخفيّ . وعاشقُ الجميلة حين يَهيم بها ويرصُدُ منها نجمَ خياله في فَلك أمانيه لايَلْبَثُ أن يرى الجمالَ قد جَسَّم فيه الحِسَّ وبَسَطَ له ضوءَ الفكر ، فاذا عينهُ في تكبير نجمة الارض كذلك المِنظار بعينه فى تكبير نجمة السماء ، واذا مِلْءُ العين حبيبُها

فيا كبِدي مما ألاقي من الهوى ....

---

(١) اصطلحوا على تسميته بالمِرْقَب وهو التلسكوب

الرسالة الثانية عشرة

وهنا مَغَاصُ الدُّرَّة في لُجَجِ الحب فألقِ على نفسك قبل أن تقرأ هذه الرسالة معنى من رقَّة قلبي حتى تُواثِقَني على أنها لا تخرج من نفسي الا كما أُريد أن تتلقاها فلا أتبَسَّطُ ولا أتسرَّحُ بكلامي هذا الا في مكان من نفسك

في موضع من شاطيء النيل نَدِيٌّ[١] فلان اليونانى وهو رجل في رقة المرأة ينهض في خدمة المحبين بفن من الذوق امتزج فيه ما تقتَحِمُه جُرْءَةُ العاشق بما يختلجُ اليه حياءُ المعشوق ؛ فترى من رُقْعةِ نَدِيِّه طرازا أخضر مُفَوَّفاً[٢] على ثوب الماء وفيه حَبْكٌ بديع من أغصان الشجر يَلُوحُ طرائقَ طَرائقَ وحُبُكاً حُبُكاً[٣] كهذا الانكماش الذي تراه طرازا لأثواب الغانيات . وتجد في أطراف النديّ أشجاراً متعانقة كلٌّ لَفِيفٍ منها يبنى بيتاً أخضر

---

(١) وضعناها للمكان الذي يسمونه (القهوة) وهي أحسن ما يؤدى معناها وليس أثقل من قول بعضهم (مشرب القهوه)

(٢) منقوش

(٣) الحبك جمع حباك والمحبوك الثوب الذي فيه هذا

ستائره من الأغصان المتدلية وجدرانه من الفروع المعروشة وكأنما زُخْرِفَ وطُلِي وفُضِّضَ وذُهِّبَ بألوان الظل والماء والسماء وما يتسحَّبُ فيها

وترى الناس يَسْتَكِفُّون (١) حولَ هـذه البيوت الخُضْر، ولكنك اذا احتَجَرْتَ في عَرِيشٍ منها وكنتَ منفرداً أشعرك بكل المعاني أنك وحدك فلا تصلح للجلوس فيه؛ وتَسَاقَطَتْ عليك ظلالُه أرواحاً عنيفة تطردك طرداً ونالتك من كل ظل ثَقْلَةٌ (٢) لا تُحْتَمل كأنما تُناجيك أن هذه الاشجار التي تشبه الضلوع ما غُرِست الا لقلبٍ وكَبِد. . . . وأن هذا البيت هو بيتُ الحب لا يَتَكَنَّنُ (٣) الا عاشقين. وهَدَتني قدماي يوماً الى ذلك النَّدِيِّ بعد أن ضربتُ ساعةً في بياض تلك الأرض وسوادها (٤) فملتُ اليه أُرِيحُ فيه من الإعياء والحر فاذا هو يهبط على نفسي بمعانيه واذا أنا من الطرب كبعض

(١) يستديرون (٢) كثقلة الطعام حين يثقل على المعدة
(٣) يحتوي (٤) عامرها وغامرها

شجرهِ أميل وأصفر وأنغى . وأدرتُ عينيَّ فأبصرتُ في سَرَارَةِ المكان (١) شجَرَاتٍ يَدْعُونني فقمتُ اليهن وما هناك أحد غيري وغير الطير ، فاذا غرسٌ قد تَسَطَّحَ وآخرُ قد تَفَنَّن (٢) وثالثٌ على ساقه كما تُقيم الخيمةَ وتَسْدِلُ عليها حجاباً من هنا وحجاباً من هناك . واذا رائحةٌ من نَفْح الحب وبقايا التنهد والتشاكي ما يَكْذِبُني الحِسُّ فيها أبدا فاستخفتني الأشواقُ وجعلت قلبي المتلهفَ ينتفض في علائقه كما يَنْزُو الفارس في السرج والجواد يَخُبُّ به ويعدو

« * »

ثم تَكَوَّر النهارُ على الليل والليلُ على النهار (٣) حتى أتت ساعةُ مَوْعِدِها بعد أن تقدمتْها حاشيةٌ عريضة من المواعيد المكذوبة والمعاذير الملفَّقة والكلام الذي لا تحلّ معانيه في ألفاظه ابدا . . . . لانه لغةُ شفتيها

وكنا نمشي وقد انتفخ النهار (٤) وبدأت الهاجرةُ

---

(١) وسطه وسرته (٢) تفرع . والمتسطح الممتد على الارض
(٣) يمحق احدهما الآخر (٤) قبل الظهر بساعة فذلك انتفاخ النهار

ترتجلُ « معانيَها الذهبيةَ » في مدح الظل والماء والنسيم؛ وقَلِقَ بنا ظَهْرُ الطريق لامرٍ مَا فقالتْ وأبصرت الندي : نجوز الى تلك الواحة . وتحفّى بها المكانُ حين جاءته كان أرواحَ الاشجار تعرفها ، فهبّ النسيم الراكد يجري وجعلت الاشجارُ يصفّق بعضُها لبعض حتى خُيِّل اليّ أن هذه ملكة الطبيعة دخلت الى قصرها

ومشيتُ الى تلك العريشة بعينها فلما احتوتنا قلت هذا مجلس السلام [1] في هذا البيت . قالت وما باعثُ هذه الكلمة ؟ قلت ان كل شيء فيك ليتكلم من غير ان يضطرب به صوت ولقد يكون من بعض خواطري وخواطرك ما أسمع منه في قلبي صوتاً كصلصلَة الدِّرع حين يقع عليها السيف وانك لاتدرين كيف أفهمك ؟ قالت فكيف ؟ قلت اني أفهمك سعادةً أخشى منها وأخافها فان السعادة ان لم تتحقق لا تضر الا في الحب فشرُّ أنواع السعادة فيه تلك التي لا تتحقق. قالت فاذن أنت تخافني ؟ قلت ولكن ذلك ليس معناه أني

(١) هو ما يسمونه قاعة الاستقبال

أخافك بل معناه أني أرجوك

قالت وعلى هـذا يكون لقولك اني أرجوك معنى آخر ؟ قلت بل معانٍ عِدّة منها أني . . قالت وماذا أفهم من أني ؟ قلت أليس فيها ياء المتكلم ؟ فقالت وأي شيء في ياء المتكلم ؟ قلت بربك لا تتمنّي أليس فيها المتكلم نفسه . . . ؟ فضحكت وقالت ولكن ما معنى انك ترجونى ؟ قلت : إن النبات لا ينبت الا حيث يجد عناصرَ غذائه ، وروحي قد وجدت في جمالك كل عناصر الحب فنبتت فيها نَبْتَةٌ جديدة أخاف ان لا تتعهديها فتذوي ؛ ومن هذا الخوف أرجوك . .

وقلبي يخشى منكِ على ما فيه منكِ فان لكل شخص ظلاً ولكن هواك نقل ظلك الى قلبي كما تنقلهُ آلةُ التصوير ؛ فان غضبتِ وتحولتِ مزّق ظلك هـذا القلبَ ليغضب ويتحول ومن خوفي هذا أرجوكِ . .

وكل شيء فى عالَم الموت يموت ويُنْسى فاذا أنتِ نسيتِنِي فهذا موتي عندك ، وكل من يحب الحياة يخاف الموت

فمن هذا الخوف أرجوكِ . .

وكلماتي هذه تخاف أن تحمليها مَحْمِلَ الجُرءة عليك فهي كذلك من الخوف ترجوك . .

قلت أفليس في الحب الا الخوف ؟ قلت فيه الرجاء ولكنه هو الخوفُ بعينه. وللعرب خرافة جميلة في سُلَحْفَاة يسمونها « بِنْتَ طَبَق » فيزعمون أنها تبيض تسعاً وتسعين بيضة كلها سلاحفُ وكلها بناتُها وكلها من جنسها ؛ ثم تبيض بيضة واحدة تَنْقُفُ عن حيَّة تأكل التسعة والتسعين كلها . . . قالت آه . قلت وآه فلو كان لي في حبك تسعةٌ وتسعون رجاءًا مائة الا واحداً ثم خوفٌ واحدٌ لمحاها كلها . فاسترسلتْ في إِطراقةٍ جميلة . ثم قالت : لقد جئتُ معي بالنسخة الانجليزية ، من ديوان « عمَرَ الخيَّام » ؛ إن هذا الشاعر - ونظرت الي باسمة - حبيبٌ الى قلبي وهو مني كالسعادة ان لم أطمع في نيلها لم أيأس من قربها ولا من الفكر فيها . كل قصيدة من قصائده تُنشيء فيَّ حبًّا جديداً ففي قلبي له أنواع كثيرة من الحب لا أدرى ما هي

ولا ما الفرقُ بين نوع منها ونوع منها ولكن كلها حبٌ كلها حب . وهو نجم بعيد عني غير اني أراه ساطعاً وأعلم أن في قلبي دماً يحنُّ اليه وفي هذا الدم ينغمس شعاعُه الآتي من السماء ، هو حيث يكون وحيث يكن فهو في قلبي

قلت واذن فلا ينبغي (للخيَّام) أن يُسَلِّطَ الخوفَ على رجائه . . ؟ فتلألأ ثغرها ضحكا وقالت « الخيام » انما هو هذ الكتاب في هذا الجلد المذهب . قلت فأنا أستنزل روحه الينا فان فيّ هذه القوة فلا بد له من ان يجيء

ثم أطرقتُ وجعلت ألمح ابتسامَها حين أُدَوِّمُ عينيَّ(١) يَمْنَةً ويَسْرَةً ثم انتبهتُ ورميتُها بنظرة ارتاعت لها روعا ظاهراً وقالت إن روح الخيام تجيشُ فيَّ منذ الساعة وهو يسألك هل تحبينه ؟ قالت بلى ، ولكن على سائلنا أن نسأله ، فماذا يرى هو فيّ ؟ قلت ان كل ما احتساه من الخمر فكان لذتَه في الدنيا يراه الآن قد خُلق جسما جميلاً رائع الجمال فهو يسكر منه ولكن سكر أهل الجنة في الجنة . قالت

(١) أديرهما وأقلبهما

أفلم ينس الخمر بعد ؟ قال « الخيَّام » . . . وهل الكتاب الذي في يدك الا أسطر من شعاع الكؤوس . قالت والحبيبة الذي يذكرها فيه ؟ . فقال الخيام لو كانت مثلك لما ساغ لي ان اذكر معها الكأس، ولكني كنت أستجمع بها مناظر الجمال فان الطبيعة تتزين لعين الشاعر اذا رأت معه امرأة جميلة كأنها تغار . قالت إذن كان يريد الطبيعة لا الحبيبة . قال الخيَّام ـ بل أردتُ ان يكون موضعُ تأملي جميلا بالجمال وحبيباً بالحب و توَخيّتُ ان تكون فيه كل عناصر الهوى . ان المسجد لا يُبْنَى في أي الامكنة بل يُختار له المكانُ الذي فيه عنصُر الصلاح والمنفعة ، والمسجدُ نبات مغروس في تُربة خاصة تجمع عناصرَ الصلاة والتسبيح والتهليل ، والخيَّام نباتٌ مغروس كذلك ولكن في الورود والرياحين والالحاظ وشعاع الخمر

قالت وهل يتقبّل الخيّام مني اذا سألته ابياتاً جديدة قال الخيام — لقد جئتِ بي الى الارض فان لم تُسَوّغيني طباعَ اهل الارض في الحب والهوى والَحنينِ لا استطيع

شيئا وان كان في وسعي ان اجعلَ كل شجرة في هذا المكان تُنشد قصيدةً خضراء بلُغتها لا بلغتك

قالت بل اريد لغتنا فانى لا افهم منطقَ الشجر

قال الخيام—فهاتى الديوان ، ثم جعل يُزَمْزِمُ زمزمةَ العجم(١) وقلب غلاف الديوان وكتب :

صُبَّ كأساً على الثَّرى فتراه
عاد قلباً يطيرُ فيه احتراقُ
يَتَلَوَّى بها ويهتزُّ منها
إنه كان أكبُدًا تَشْتَاقُ
وَيْحَ من أسكرتْ إذا تُسكِرُ الكأ
سُ ويا ويحهُمْ إذا ما أفاقُوا
تَنْسجُ النورَ والشعاعَ خيُوطاً
كلُّ خيط للهمِّ منه وثَاقُ
وتُريني السماءَ في سَعَةِ الصدْ
رِ وصَدْري بِشمسها(٢) آفاقُ

(١) صوت همهمتهم وهم يزمزمون عند الشمر وغيره
(٢) تشبه الخمر بالشمس

أحتَسِيها كالفجر يُعقِبُ ليلاً
أو كليلٍ للفجر فيه انبثَاقُ
هَاتِها فهي في فَمي قُبُلَاتٌ
واصطدامُ الكؤوس منها عِنَاقُ

وقرأت الأبيات وأنا أترجرجُ كأن في الكرسيّ زلزلةً أو كأن فيّ روحا يضطرب ويتقلقل؛ فما انتهيت الى « القبلات والعناق » حتى انقلب الكرسي بي فاصطدمتُ بها ولم أقع ولكن . . آه ولكن وقع فمي على خدها وَجَعَلَنَا (الخيّام) كأسين في يديه فقرع كأساً بكأس ليسمع منهما في صوت القُبلة رنّةً مُسْكِرة . . .



الرسالة الثالثة عشرة

تلك ساعةٌ لا تَطْلُع عليّ ذكراها الا طلوعَ الفجر في نور وألوان ونسيم وندى ؛ فاذا أطرقتُ فيها وتمثّلتُها رأيت ذلك الفجر يمتدُّ ويضطرم واذا الشمسُ قد بزغت منه تُطوِّح بشعاعها من بعيد تحيةً للارض وأهلها ؛ ثم أُمعِنُ فيها فترتفع وينْسَاحُ (١) ضوءها واذا بتلك الفاتنة قد طلعت لي من الشمس ؛ واذا نحن على تلك الطريق ، واذا المكانُ والزمانُ والسحر والجمال ؛ واذا نورُ وجهها قد نبع فيه الضوء الأحمر من لون الحياء ؛ واذا هي واقفةٌ وعلى خدها القُبلةُ الاولى

لمستْ روحي روحَها ؛ ذلك هو معنى القبلة . ولكنها وقفتْ ذابلة يُعْرَفُ فيها الحزنُ ، وكان في صدرها التنهد وكان في لحظها معناه ؛ أما لون التنهد فبقي على خدها يالله ما كانت الا تمثالا يريني منها صورةَ الاطمئنان

(١) ينبسط شعاعها

الخائف، وما كنتُ بإزائها الا تمثالا آخر يريها مني صورةَ البراءة المتَّهمة . وكنت أقول لها منذ هُنَيهة إن الحب هو الخوف ؛ فعلمت أن من الخوف اشياءَ لاشيئا واحداً كلها من نَكد الحب : الخوفُ نفسهُ ثم رجاءُ ذهابه ثم خشيةُ قدومه ثم خوفٌ ليس فيك ولكنه في النفس التي تحبها ؛ والانسان حين يرجو الاقدار يشعر بها بعيدة عنه ولكنه حين يخافها يراها قد خالطته وكأنما تعتَلِجُ في جنبيه وتعركُهُ بكل أثقالها . ليس ما يُخيفنا هو ما نخشاه في الحقيقة . انما هو قوة خَفيَّةٌ في الغيب تعترى القلبَ فتتناول مَنفَذ الحياة منه فتَرسل فيه ما تُرسل من الآلام الحكيمة كما ترى اللافظةَ من أنثى الطير حين تزُقُّ فرخها وعنقهُ المرِنُ الغضُّ ينتفضُ في مِنقارها ؛ وهو يكاد يختنق من طريقة إطعامه الحياة ؛ وكذلك نتناولُ من السماء حكمةَ الألمَ

« * »

ولما تصرَّمتْ تلك الوَهْلَةُ(١) التي اعترتْها مزَّقتُ بشفتي

---

(١) انكشفت الحيرة

ذلك الصمتَ الذي كان يغرز أنفاسي في قلبي كأن في كل نَفَس إبرةً نافذة وأردتُ الكلام فجعلتُ أُجَمْجِمُ في عذرى (١) وأرسل ما يحضُرنى من نفس الشفتين المتهمّتين بالذنب ... وهي غافلة أو متغافلة لا تأْذَن لكلامي أن يمر بها. ثم نظرت فاذا فى أجفانها دمعة تترقرق وتهم أن تنحدر. وكأنما لم أكن عرفت ظَرفَها ومزاحَها وميلَها الى النادرة وأنه لا يَسْري الهمَّ شيءٌ عندها كالكلمة الشاعرة وأن الجبل من جبالِ غيظها وغضبها تنسفه جملة مُفَرْقِعَةَ من الضحك، وأسعدني طبعي الجريء الذي أنكرْته من يومئذ فلمع لعينيّ معنى جميل فى دمعتها فأمسكتُ يدها وقلت: ان عذرى اليك في اضطراب الكرسي بى وما تعمدتُ نِيّةً وهذه يدي لكِ بأن حكمك فيّ نافذ اذا لم تنشر الصحف اليوم أو غداً:

« حدثت زلزلة خفيفة لم تُلحق ضرراً بأحد .... »

فتدافعَتْ تتبسّم وغَمَر وجهَهَا معنًى رقيقٌ كالنور

---

(١) أعتذر من غير تصريح

الذي يسطع من خلال سحابة كانت مجتمعةً ثم تسايرت تجرُّ سوادها . واستتبعتُ فقلت : ذلك عهدي وأنا مُرْتَهَنٌ بكلامي مأخوذ بأقوالي فهذا توقيعي عليها وأسرعت فقبلتُ يدها الجميلة . وحلتْ هذه الجرْأةُ عقدةَ صمتها فقالت : والعذر ذنب آخر ؟ قلت : فاذاً كان ذنباً فان منه عذراً ثانياً . . . . . ولكنها أسرعت فاختلجتْ يدها وما تماسكتُ ضحكاً

« * »

القبلةُ الاولى هي تلك النظرات الطويلة الحائرة في أعين المحبين وقد ضاقت بالصمت والابهام وكثرةِ ما تتردد بين معنًى يسأل ومعنى يجيب ، فانحدرت الى الشفاه لتخلقَ حركةً وتتمثلَ صوتاً وتستعلنَ للحب بكل معانيها . فالعواطف المشبوبة والنظرات المتكلمة والابتسامات المترجمة تأخذ كلها في تأليف تاريخ الحب زمناً يقصرُ أو يطول . ومتى بدأت في تدوين هذا التاريخ كانت الكلمةُ الاولى هي القبلة الاولى

واللغات تعجز أحياناً بما نُحَملها فلا تُحسِنُ التعبيرَ اذا كانت العاطفةُ قوية مُهْتَاجَة وقد نَشِبَتْ في عاطفة أخرى مثلها . فاذا ضاقت الروح بهذا العِيّ عمَدت الى لغتها الاولى فأرسلت العاطفة لونا في الوجه اذا كانت حياءً او خوفا ؛ ورِعْدَةً في الجسم اذا كانت فزعا أو محْقا ؛ ودمعاً فى العين ان كانت حزناً أو قَهراً ؛ وضحكا وابتساما ان كانت إعجابا وطربا . فاذا كانت العاطفة وجداً ولوعةً وقد استفاضت بين روحين ؛ دنَتْ احداهما من الاخرى فمسّتْها بشفتيها فيكون هذا اللمسُ بأداة النطق هو ابلغُ النطق

إنما تحيةُ الفكر ردُّ كلمة بكلمة ؛ وتحية النفس هزّ يد بيد ، وتحية القلب لمسُ شَفَةٍ بِشَفَه



الرسالة الرابعة عشرة

كم أسأل الدُّرَّ عن معناكِ باسمةً
والوردَ عن لفظة قد أطبقَتْ فاكِ
لا الدرُّ يدري ولا في الوردِ لي خبَرٌ
أرويه عن شفتيْكِ أو ثناياكِ
يا نجمةً أنا في أفلاكِها قمَرٌ
من جذْبِها ليَ قد أضللتُ أفلاكي
النارُ بالنار لا تُطْفَا اذا اتصلتْ
فكيف أصنعُ في قلبي لِيَنْساكِ ؟

آه ايها العزيز إن صدرى لينشقُّ لهذه الأبيات وان لها لَغَمْزاً على فؤادى لا يسكن وانى لأرتَمِضُ بها كأن فى كل بيت منها نوعاً من أنواع الُحمّى . هي ألحاظها أولَ اللقاء بينى وبينها ساعةَ كانت تنتزع الفاظَها من قلبى فألتوى عليه لأَنتزعه من ألفاظها ، وكنتُ ساهياً عن القدَر وعين القدر ذاكية عليَّ في تلك الساعة ولا أدرى

لقيتها وما أريد الهوى ولا تعمّده قلبي ولا أحسب أن فيها أموراستؤُلُما لها (١) ، وكنت أظن أن المستحيل قسمان : مايستحيل وقوعهُ فلا تُفضِي اليه ومايمكن وقوعهُ فتهمله فلا يُفضي اليك . ولكن حين توجد المُعجزة تبطل الحيلة ومتى استطردك (٢) القدَر الذى لا مفرّ منه أقبل بك على ما كنتَ منه تفِرّ

ان لهذا العقل جَمَحَاتٍ تردُّه أحياناً الى طبيعته الاولى من الطفولة التي غَشِيَتها الايامُ والليالى والافكارُ والحواس فيرجع الرجل طفلاً صغيرا لايدرى كيف يُميِّز ؛ ولقد يكون ومايُشبه رأيَه رأيٌ ولا يتعلّق بصوابه صواب وانّ عقله لكالنجم من أيٍّ أقطاره اقتحَمَته عيناك رأيته نارا وشعاعا . غير أنه متى بلغ تلك السَّوْرةَ فجمَحَ عقلهُ أسرعتْ منه الفَيْأةُ (٣) الى حالته الاولى فانتبهت الطفولة فيه فعاد كالطفل . فاذا فجأه الحبُّ فى عين امرأة رأيته لايبالى الا ماعرف فى عهده الاول من تحنّى المرأة عليه وانعطافها

(١) أي تنتج نتائجها (٢) ساقك أمامه (٣) الفيأة الرجوع

له ، ورَجَعَ الى « عصره النسائى » فترى الدنيا بما وَسِعَت لا تعدل فى عينه الصدرَ الجميل الذى يترامى عليه ، وتموت المطامع فيه وترجع كلها الى محصول واحد من ذلك الفم الذى يحبُّه ، وتعود لغة الحياة عنده كلغتها الاولى فى إشارة أو كلمة أو ابتسامة أو قُبلة

ان الطفولة تَكبَر فينا ولا ندرى ؛ ودع الناس يسمون حماقة الانسان بما شاؤا فهي هي انتباه الطفولة فيه ومُحَاجزَتُها فى ساعة من الساعات التى يَجْمَحُ فيها العقل بين ذات نفسه وبين صفاتِ نفسه

« * »

لا يريد الهمُّ منك اكثر من أن تريده فيأتى ؛ وحتى لو زَوَيْتَ جلدةَ وجهك [١] حكايةً وتمثيلاً لطلع مما بين عينيك فهو مقيم فى أعصاب كل انسان ؛ لا يبرح الانسان يؤَدِّى اليه شيئا ويحمل منه شيئا يؤَدِّيه ، بل هو نصفُ مكروبات الدم الانسانى ... ولذلك قالوا : إن القلب

(١) قبضتها كما يفعل العابس

المبتهج يقتـل من المـكروبات اكثر مما يقتل أقوى المطهِّرات . وهمُّ الحب همٌّ على حِدَة لانه لايكون فيك بل يتصل بك من أعصاب أخرى ودم آخر . وما أحسب أن ألحاظ المرأة الجميلة يكون فيها ذلك الفُتور وذلك التكسُّر الا بما تحمل من الاشعة المسمومة ، تلك الاشعة التى متى وقعت فى الدم الذى يقبلها ويتأثر لها طبعت فى كل ذرة منه صورة من صور تلك المرأة

هـذا همُّ الحب ولـكن مجيئه همٌّ آخر لانه يَتَهَكَّمُ بالناس فلا يأتيهم بكُنْهِه وحقيقته الا فى أسـلوب الحظ والسـعادة ثم لايأتى الا اتفاقا ومصادفةً فى ساعة ترتجف كأنها وقعتْ الى هـذا الزمن خطأ ، أو كأنها تُحِسُّ بما فيها من الجَوْر والقتل ، أو كأنها خُلقت مرتَجفةً متزلزلة ليتأتى لها أن تزحزح الطبيعة الانسانية وتطيشَ بهـا حتى فى جبابرة العقول الذين رسخت طباعُهم بجبال من الاخلاق الراسية تمنعها أن تَميد أو تتزحزح . السرور والحب كلاهما يأتى اتفاقا ، ولعلك لاتجدُ فى كل ماعرّفوا به السعادة أصح

ولا أوفى من أن تقول إن السعادة هي نفس هذا الاتفاق حين يتفق السرور أو الحب

« * »

والجناح الكبير إنما خُلق كبيرا ليأكل الأجنحة الصغيرة . ولما لقيتُها كانت ألحاظها تقول لى بفصاحة أوضح من نور الصبح : أنت فريستى ؛ وكانت ترفرف علىَّ فأتنسّمُ منها هواءاً يذهلني كما تذهل العصافير الصغيرة للجارح المنقضِّ عليها . وتحولتُ أسرعَ مما أرادت بى وكنتُ ذا عزيمة قوية مضيئة كالنهار الذى يتغذى من دم الشمس فما أسرعَ مافتح هذا القمرُ بابَ سمائه وطلع علىّ من سحره بمثل مايطلع قمرُ الارض على الارض فيُبدِلها من نهارها ذلك الصبحَ الرّطْبَ المريضَ الذى تتخايلُ فيه الظِّلالُ والنَّسَماتُ حتى يَأْذَنَ الله فتمُحَى آية الليل الأَسود وتُطْوَى آيةُ القمر الأبيض

كنتُ كذلك البطل الذى أكْدَى مرةً في قتال خَصْمه ورجع كما يرجع الجبان فعيَّروه فقال والله ما كنتُ جبانًا

ولـكني زاولتُ أمرا مُوَجَّلا (١) . وتالله ما كنتُ ضعيفاً
ولـكني دافعت قدَرا معجّلا لا يُدْفَع

« * »

وحاولتُ أيها العزيزُ ان اكتب اليك وانا في هـذا الموت فصنَّفتُ كلماتٍ ثم خشيتُ أن أرتادَ أحـداً لسري يحفظته فيها وتركتها بين أوراقي ؛ وكان قلبي يحدثني أنه يَنسْرَوِحُ من هـذه الصحيفة رائحة صفحات كثيرة سأكتبها ؛ وقلتُ إنه حب أبيض لا ينبغي الا أن يكون منسيًّا او سراً مُضْمَراً او على الاقل شيئاً غير ظاهر . أما الآن فانى مرسـل اليك ما كتبت ؛ ولَتَجِدنَّ هذه الاسطر وما فيها الا قلبٌ يتمزق ونفسٌ مُضَعْضَعة وكأنما هي من بكاء أعصابي المتألمة . واذا رأيتَ بلدا سال بها السَّيْلُ أو مدينةً جاشَ بها البحر فاعلم ان لهما ثالثاً في معنى الخراب وهو العاشق الذي يَغْمُرُهُ الدمع . وها هي الرسالة :

(١) اكدى أى أخفق ويريد البطل انه لا حيلة له في أن يفرغ من عمر لم تفرغ مدته

أ كتب اليك وانا في حال هي من شدة الوضوح قد صارت في شدة الغموض وأيةُ حال تظنها ؟ سيذهب بك الظن الى الموت فهو أخفى ما ظهر من اسرار الانسانية ، ولكن هناك موتاً لاينقل من الدنيا الى الآخرةِ بل من نصف الدنيا الى نصفها الآخر .... وهو في أسرار الانسانية عكس ذلك لانه أظهر ماخَفِي ، وهو الحب

علامةُ هذا الموت الصغير أن يقعَ كل شيءٍ منك في غير موقعه حتى لو جاءك اليقين لانقلب شكّاً ولو لمست الحقيقة لاستحالتْ شُبهة ، ثم تجد في أسباب الحياة مايجد المريض فى أصناف الطعام لان العلة المستقرة فيه تجعل فى كل شيءٍ له علةمنها. وترى كل ما أنتَ ناظره يُوَسْوِسُ فى نفسك بلُغَةٍ ما ولمعنى ما حتى لايَترَامَى أمرُكَ الا الى الوساوس والاباطيل كأن جماعة من الشياطين ارتجَّتْ فى صدرك فلا يَهْدَأُ أبداً. وتحسبُ الارض قد نَبَتْ بك وثَقُلتَ عليها كأنها لاتستطيع أن تحملك أنت واعتقادك الجديد... وما اعتقادك هـذا الا انك ترى الناس جميعا قد تغيروا فلا

تصيب بينهم موضعاً تكون نفسُك فيه هي نفسك الا ذلك الموضعَ الذي يضمُّ من تهواها ؛ أما سائر الامكنة واما سائر الناس فانت منهم في رأيِ نفسك كالمُصْحَف في بيت الزِّنْدِيق المُلْحِد، يُظْلَمُ في كل شيء في الوضع وفي الاستعمال وفي الاعتقاد وحتى في النظر اليه ...

وتستحيل فيهم بشخصك الواحد الى اثنين معهما خيالُ شخص ثالث ... فلا ترى الا أن نصفك يَتَحَزَّنُ للنصف الآخر في كل ما تراه. وهذا النصف الآخر يكون في بَلائه كالطائر الذي وقع من الجو بسهم فلما أحسَّ الارضَ جعل يَهِمُّ ويُدارِكُ الضربَ بجناحيه ويَكِدُّ ويَعْنُفُ على نفسه ولكنه لا يطير ؛ وكلما اراد أن يثب الى السماء وجد آلتَها فيه مختلَّة تَرْجُفُ وتضطرب ولكنها لا تعلو ؛ وقصَّر جناحُه فَلَصِق بالارض وجاءه الموتُ من كل مكان وما هو بميّت

تُبغِضُ العيشَ وتُبغض الحياةَ وتبغض الناس ؛ تبغض ثلاث مرات لانك أحببتَ مرة واحدة ، وهذا كله اذا

كانت من تحبها لاتدري بهواك أو كانت تدري ولكنها لاتستطيع او كانت تستطيع ولكن ... آه ياعزيزي لابد في لغة الحب من « لكن » اذا كانت المرأة تعرف لغة الحب

ياوَيْلَتَا لقد انتبهتُ الى أني أخاطبك كأنك انتَ المُبتلَى ... فلعلك عاذري فان هذه طبيعة النفس الحزينة تريد ان تكون مصائبُها في سواها ولو على ورقة ... لم يبق مني الا جزء قليل من شخصيتي القديمة اما اكثرها فضاع ضياعَه او أصبحتُ لا أملكه . ولكن هذا الجزء الباقي يُفْسِح لي مذاهبَ النفس فاراني كأنما أستقبلُ السموات وأحويها في صدري ، وارى بعينيَّ مجموعي الانسانيّ كلَّهُ واضحا يَتَسَامَى ،وأشعر أني عقل من هذه العقول التي تُشرف على الدنيا وتعمل في نظامها

ولا أثقَلَ على نفسي من الناس فان ظِلاَلَهم تهبط على قلبي المتألم بأشباح ممسوخة وأراهم على وَتيرة واحدة في ثِقَل الروح وسواد الظل ؛ ولا ذنب لهم غير ان ولياًّ من اصفياء الله خرج يتوضَّأ يوماً وقد اقبل الناس على وضوئهم

فكَشَفَ الله عنه حِجَابَ الحيوانية فنظر فاذا لكل رجل وجهٌ ولكل وجه سَحْنَةُ حيوان ولكل حيوان منًى واذا شهواتُ انفسهم قد مَسَخَتْهم مسخاً وفاءَتْ ظِلالُها على وجوههم بجلود الحمير والبغال والقِرَدَة والخنازير وما دبّ ودَرَج . فاللهمّ غوَاثَك لاهل النفوس (١) .

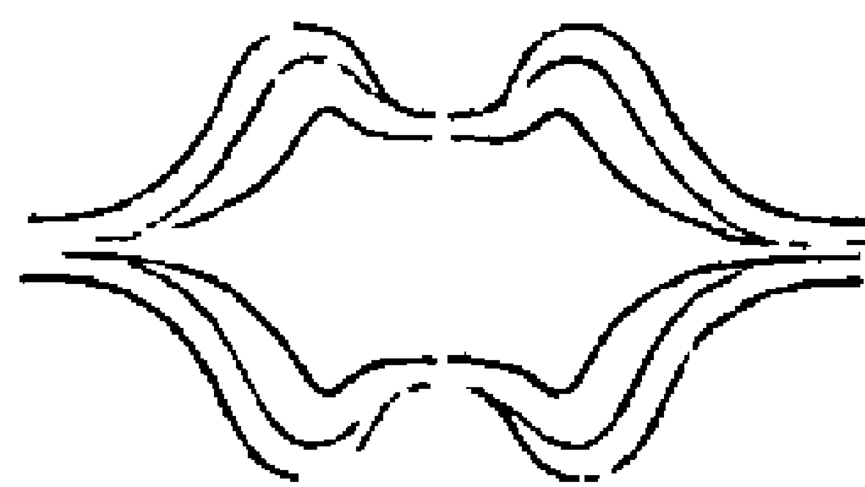
وهذا الحب حاسة في الروح فهو ولا ريب يستثقل كل ماينَافِرُهُ من الطبائع ، طبائع هؤلاء الذين يَتَرَفقُون للعيش (٢) بأيديهم وأرجلهم وأبدانهم وقلوبهم وأنفسهم فيُثِيرون فى كل سبيل غُبارَ الحيوانية على كلِ قلب روحاني فلا يكونون عليه الا ألماً ومَضَضاً وشدةً من الشدة ؛ وكثيراً مايُخَيَّل اليَّ فيمن حولى ممن أُخالطهم اضطرارا أنهم ثعالب أُطلِعَ عليهم برائحة الاسد الضارى .

ان عواطفى تغلي وتَستفِزُّ فى مثل المِرْجل من إرادتى العنيفة المصبوبة من فولاذ الكبرياء ولست أخشى فى هذا الحب الا انفجارَ هذه الارادة التى هي وعاء النفس

(١) أي أغث (٢) يعملون للعيش والكسب

فانها ان تنفجرْ ذهبتْ قِطَعاً مُبَعْثَرةً على كل كَسْر منها كَسرٌ مني . فهل تنفجر يوما ؟

ما أشدَّ هـذه الأيامَ الحادَّة . إنها كَسُلَّم نُصِبَتْ لى درجاتُها من سـيوف مسنونة ؛ فى كل يوم جرح ينفجر بالدم ولـكل يوم عذاب وتقطيع فى الجرح نفسه ؛ لا راحةَ فى الصـعود ولا فى الوقوف ولا فى النزول ، وكلَّ يوم يقول لى حبها تَعَلَّقْ بيديك الممزَّعتين على حد هذا السيف وضع قدميك الممزَّقتين على حد ذاك السيف ؛ واصعد



الرسالة الخامسة عشرة

إن كل ماسطرتُ فى هذه الرسائل قد انعقد همُّه وسوادُه فكان عَجَاجَةً ثائرة من حرب الهوى ؛ ليس تحتها فى حَوْمَةَ القلب الا ألم كضربة سيف أو طعنة رمح أو كَيَّةٍ برصاصة ملتهبة حمراء . احتَمَلْتُ نفسى (١) عما كانت فيه من الغيظ والمَوْجدَة ودافعتُها وغالبتُها حتى وقفتُ بها على صِراط النسيان ولكنى فى ذلك إنما كنتُ كناقِش الشوكة بالشوكة (٢) يعالج وَخْزَةً واحدة بوخَزات كثيرة ويكشف عن حُمَةَ العقرب النباتية بحُمَةَ مثلها ؛ ومازلتُ أُنكتُ بسنِّ هذا القلم فى صميم هذا القلب حتى فاض فى صفحات هذا الكتاب

قَبْضَةٌ من هـذه الاوراق جعلت بينى وبين تلك الحبيبة ماتجعل قبضة من التراب بين الحي والميت. إذ تَنْثُرُ يدُ الموت من ذرَّاتها عوالمَ أبديةً بينك وبين من تحبّ أو من كنت تحب ....

(١) أي حولتها (٢) يقولها العامة ناكش الشوكة

حسوتُ كأسَ الحب فدارت في دمي وانحدرت الى قلبي وصَعِدت الى رأسي وهذه الرسائل هي الحقيقةُ التى كانت في خمرها قَطَرَتْ من القلم كلاماً ومعانى . ومنذ اليوم سأضع العقل بينى وبين تلك الكأس فلا أراها الا جنونا ملوّناً ومرضاً مُزَخْرَفاً ثم لا أراها الا حُلُما خَمْرِيًّا زاهيا إن حَسُنَ بالنائم أن يَسْتَغْرِقَ فيه لايحسن بالمتيقّظ أن يُلِمَّ به ؛ ثم لا أعرفها الا شيئا يجب اطّراحه إن لم تَدَعْهُ لأنه إثْم فلتَدَعْه لانه ذَمّ

اضطرمت النار فأكل بعضُها بعضاً وهذه الرسائل هي صوتُ الماء الذي صُبَّ عليها ليُطفئها فزفرتْ به الزفرةَ الأخيرة ؛ ومات الهوى لما أُصيبت مقَاتله

« * »

تلك مسئلة امتحنتني الحياة بها فما كان أجهلَنى إذ ركبتُ فيها الشُّبهة أُصَرِّفُها بعنان الحَيرة فمضتْ تتخبطني. إن اعجابي المجنون أخرج لى من الحقيقة الصغيرة على الارض خيالاً في قَدْر السماء يتلألأ في عين الشمس على أجنحة

الملائكة . وكذلك الجهل في الانسان يُخرج له من كل مسئلة سهلة الحل مسئلةً لاتُحل أبدا فلايبرحُ الفكر يضرب فيها مُقبِلاً و مُدبراً ولا ينفُذ اليها الا من الجهات المستحيلة التي لايخرج الصوابُ لامن واحدة منها ولا منها كلها

والخطأ ههنا من لاشئ وليكن اسمُه بعدذلك مايُسمّى. سمِّه مسئلةً فارغة أو مشكلةً دقيقة او رذيلةً جميلة او حبًّا او امرأةً . . . او ماشئتَ ؛ هو على كل ذلك خطأ من لاشئ

« ❋ »

إنّ مَسَّ استقلال دولة من الدول العظمى قد يكون أحيانًا أيسر وأهـون من مسّ اسـتقلال نفس من النفوس الكبيرة

وفي الدم الكريم قانونٌ أزلي يرثه المرء من سلسلة طويلة من أجداد كرام ؛ فاذا انُتهك هـذا القانون الالهى وخاضت في ذلك الدم مهانَةٌ او مَخْزَاة ، انتفض أولئك الأموات العظماء فيه واضطربوا كامواج البحر فى البحر ،

وتحولت قَطَرَاتُ الدم العريقِ الى لَمْحٍ بَاصِرٍ[١] كأَن كل قطرة منه تَفُورُ على حدِّ سيفٍ مجرَّد من غِمْده ؛ وامتلأت عروقُ الحي أصواتاً داويةً كصلصلة السلاح في المعركة ؛ وترى ذلك الدمَ الكريم يَتَرَقْرَقُ ثم يَتَعَقَّد ثم يلتفُّ على الجُرْثومة التي دَنَّسته فينفجر بها انفجارةَ البركان لا يَدَعُ الصخر صخراً ولا الحديد حديداً ولا التراب ترابا بل يُذيبها كلَّها في حَمِيمٍ[٢] واحد يجمعُ صُوَرهَا النافرةَ المختلفة في صورة بغيضةٍ مُهلكة تُدَمِّر كل شيء

كذلك حُكْمُ قانون الدم ؛ وكذلك حَكَم هذا القانونُ فقضى في دمي ودمها

أيها الجميل الذي يحسب كلَّ شيءٍ مَوْطِئَ قدميه . ان ذَلّ لك الحيّ بدموعه لم يذلّ لك الأموات العظماء الذين استَوْدَعوا لآلئ كبريائهم الكريمة في الأصداف من عِظامه تحت الأمواج الجيَّاشة من دمه الحرّ ، ومن لم تُعزِّه نفسُه فلا يَصلُحُ الا أن يكونَ رجلاً لا يصلُح . . .

(١) النظر بتحديق كما يفعل العدو المبغض (٢) اصله الماء الحار

* * *

والآن سأدع صمتي يتمم كلامي . وانه لصمتٌ قاتمُ الأعماقِ أسودُ النواحي لانه مملوءٌ بفكرة التوبيخ ؛ مُظلمٌ شديدُ الحَلَك لان شمس الحب لا تَسطعُ فيه ؛ مُبْهَمٌ مُستَغْلِقٌ لانه صورةُ الظن السيِّئ ؛ مُوحِشٌ مقْفِرٌ لأنه رسمُ قلبٍ حزين

١٧ فبراير سنة ١٩٢٤

خاتمة الكتاب

اجتمعتْ في هذه الرسائل عواطفُ الحب تَتَساوَق مَعَانيها دون حوادثها على نَسَق الشعر والفكرة لا على سَرْد التاريخ والرواية ، إذ لم يكن الغرضُ منها حكايةَ نفسين بل صفةَ نفس صريحة لنفس مُعَقَّدة .... فلما ضَمَمْتُ أُلْفَتَها وهيأتها للطبع أدرتُ الرأيَ فيما أرضاه منها وما لا أرضاه وما زاتُ بها على ما يختلط فيها من الحب والبغض حتى خرجتْ كما يخرجُ الماءُ الصافي من الماء الكدِر وجاءت كما ترى نَقِيَّةً بيضاء ليلُها كنهارها

« * »

ان ساعةً من ساعات هذا الضعف الانسانى الذي نسميه (الحب) تُنْشِىءُ للقلب تاريخاً طويلاً من العذاب إن لم تكن آلامُه هى لذاتِه بعينها فهى أسبابُ لذّاته ؛ ومن ثَمَّ يشتبهُ الأمر على المحبين اذا استفزّتهم فَوْرَةُ الغضب ممن أحبُّوا ، فلا تجد في البَغْضاء عندهم أبغضَ من طريقة إظهارها حتى إن نيران قلوبهم لتَخْلُقُ منها الشياطين ؛ ولقد

كان في هذه الرسائل كلام يَدْوِي كهزيز [١] السحابة الحمراء تنطلق من الرصاص في معركة حامية لتُمْطِرَ مطر الموت والألم والوجع، فلم أُثبِتْ منه إلا كما ترى من ضَبابَةِ البخار فوق المِرْجَلْ الذي يَغْلي ، ومن ألوان البرق نَلْمَحُ من صواعقها لَمْحًا

ألا كم في هذا الحب من العجائب المتناقضة حتى إن فضيلة الصبر في العاشق هي نفسُها رذيلةُ الغضب فيه ، كلما طال صبره طال غضبه ؛ وتراه يُبْغض بأقوى ما في نفسه فلا يكون ذلك إلا إخفاء لأضعف ما في قلبه ، واذا تَرَامى في أطراف الارض لينأى عن حبيبه رأيته من أيِّ عِطْفَيْه التَفتَ [٢] لا يجد الا خيالَ حبيبه ؛ ومهما تَطَارَحَ قلبهُ في مَطَارح السُّلوان فلن يكون الا كعقرب الساعة تَعمل كل قُواها في إبعاده عن « الثانيةَ عشرةَ » ليرجع دائمًا بنفس هذه القُوى الى الثانيةَ عشرةَ نفسها

والعاشق هو وحده المخلوقُ الغريب الذي ترى

(١) الهزيز صوت الريح تصفر به (٢) من اي جانبيه التفت

الاحلامَ في عينيه وهو يقظان يَعْقِلُ ويعي . فليست الحبيبة في عينه امرأة كغيرها من الناس ، وانما تُخرجها له جملة من الصفات الغريبة التي فيها لتقابل جملةً أخرى من الصفات الغريبة التي فيه ؛ ومتى كان الأمر غريباً نادراً من طرفيه في النظر والاعتقاد لم يبق فيه موضع يمكن الحكم عليه بأنه من الاشياء المألوفة التي جرَتْ بها العادة . وتلك هي مُعْضلَةُ الحب التي جعلت من بعض النساء الضعيفات هَزْلاً أروعَ من الجِدّ ومن بعض الرجال الأقوياء جِداً أسخفَ من الهزل ؛ معضلة لا تُحل أبداً ما دامت بين الحبيب ومحبه إذ لا تجيء ولا تكون ولا تستمرُّ الا كما تجيء وتكون وتستمر ؛ وانما مثَلُها كذلك الانعكاس الذي لا يَسْتَوِي له بحال من الأَحوال أن يُظهر الكتابةَ على المرآة الامقلوبة أبدا

«*»

كل معنى انسانى في الحبيب يكون دائما وراءه معنى غيرُ انساني في وهم المحب ؛ فالمعشوق مجتمع من إنسانيتين

متبَايِنَتَيْن وهذا هو كل السر في انفراده عند من يهواه مادام يهواه

وأظهرنى صديقى على رسم صاحبته التى يصفها فى هذه الرسائل أوصافاً كثغُور الحسان لاتفترُّ الا عن لؤلؤ ، فما رأيتها فى الجمال خارجةً من الجنة ولا سابحة مع الملائكة ، إن هي الا واحدةٌ من خمسين من كل مئة فى النساء (١) ولكنى أشهدُ أن عينيها كأنهما غير إنسانيتين ، لو كانتا فى أسدٍ ضارٍ لارتمى عليه العاشق من تلقاء نفسه ليفترسه . فيهما بَيِّنَةٌ صريحة على أن هذه المرأة الشاذَّةَ إن أحبت لم يعرف أحد غيرها كيف تظهر حبها ، فربما آنَسْتَ منها النَفْرَةَ أو الإعراضَ أو البغضَ ملَالَةً فما فوقَها ومع ذلك يكون هذا هو حبَّها الذى ابتُلِيتَ بكتمانه أكثر مما ابتليتُ به

واذا كانت القدرة الأزلية تصطفي من نوابغ العقل والشعور من تُكَاشِفُهم ببعض أسرار التعبير فى مَلَكُوت

(١) الخمسون نصف المئة . . . . وأعتذر الى صديقى

السموات والأرض ، جاعلةً وسيلَتها الى ذلك مَلَكاً أو شيطاناً أو امرأة كأحدهما . . . فتلك التي رأيتها امرأة كأحدهما ولكن لا تَدَعُك أسرار عينيها تعرف أيُّهما هي ؟ . . . . .

« * »

ليس ببعيد أن تكون هذه القلوبُ الانسانيةُ ينظر بعضُها في بعض أحياناً على شعاع الروح كما يتراءى الوجهُ للوجه فى سِرَاج العين ، ومن ثَمَّ يكون اختلافُ كل عاشق مع الناس أجمعين في تقدير الجمال الذي يعشقهُ واعتباره إذْ لا يُقَدِّر بعينه ولا بعقله ولكن بقلبه . ولقد حاورتُ الصديق يوما في جمال صاحبته تلك فقال إني أرى مالا ترى فان قلبي ينظر في قلبها كما تنظر أنت في وجهها ؛ ومتى جادلتَ محبًّا في هواه صارت الحبيبةُ في جِدالكما كالفلسفة تراها عند أهلها إيضاحاً لشيء مُعَقَّد فاذا تناولها غيرُ أهلها انقلبت تعقيداً لشيء واضح . . . . وإن المرأة الجميلة في رأيي هي تلك التي أرفعُ روحي إليها إذ لستُ أفهمُ من معنى الحب الا أن الروح اهتدت الى شيء من

سرِّ الانسانية في إنسان جميل قد استطاع بجماله أن يهديَها الى هذا السر

ولما يَبِسَ ما بينه وبينها واجٍ في غضبه منها سألته رأيه في « إيضاح المعقَّد .... » [1] فقال أيها الرجل ! اذا مدحتَ امرأة جميلة فلا تقل ما أجملها بل قل ما أجمَل الشرّ

« * »

آهٍ مِنَ الدُّنْيا ومِنْ قَدَرٍ عَلَى الدُّنْيا حَكَمْ

البُغْضُ شَيءٌ مُؤْلِمٌ والحبُّ شيءٌ كالأَلَمْ

تنبيه

هذا الذى أصدرناه من « رسائل الاحزان » انما هو نصف كـتاب الحب . وبقي نصفه الآخر الذى يحتوى رسائله اليها ورسائلها اليه وسنخرجه ان شاء الله كتابا على حدة ان أذنت هي في نشر رسائلها . فان لم تأذن طويناه وبقي النهار مشرقا على نصف الأرض والليل مظلماً على نصفها الثانى ....

(١) أي حبيبته التى شبهها بالفلسفة

خطأ وصوابه

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٤	١٥	وغير	غير
٢٥	١	بسرّ	وسرّ
٣٩	١٠	رهجٌ	رهجٌ
٨٦	١٤	الحل	المحل
١٢٥	١٤	على النجم	عن النجم
١٤٠	٢	عليها السماءَ	عنها السماءَ

ولعله فاتنا ما لا يفوت القراء مما ينبه على نفسه

طبع هذا الكتاب من الصفحة ١١٣ فى

المطبعة السلفية - ومكتبتها

فى شارع خيرت رقم ٤٠ بمصر